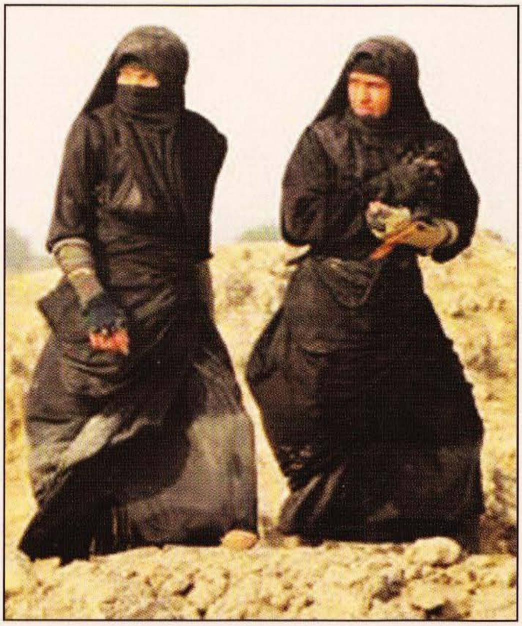
عتيق رحيمي

ألف منزل للحلم والرعب



ترجمة:

إسكندر حبش

منشورات الجمل

رواية

عتيق رحيمي: ألف منزل للحلم والرعب

عتيق رحيمي

ألف منزل للحلم والرعب

ترجمة:
إسكندر حبش

منشورات الجمل

ولد عتيق رحيمي في أفغانستان العام ١٩٦٢، نشأ وترعرع في عائلة «ليبرالية ومتغربنة»، وفق ما يقوله عن نفسه. تابع دروسه في «الليسيه الفرنسية» في كابول. في عام ١٩٧٣، وإثر الانقلاب العسكري، سجن والده (وكان قاضي تحقيق). كذلك عمّه . بعد اتهامه بأنه فوضوي. حادثة كانت لها الأثر الكبير في تحوله إلى الكتابة، إذ بدأ يكتب من حينها، وبخاصة أنه كان «مهووساً بالأدب والسينما الفرنسيتين». بعد ثلاث سنوات من السجن، غادرت العائلة أفغانستان إلى الهند، وقد التحق بها عتيق بعد الانقلاب الشيوعي. بقي هناك لمدة ستة أشهر، لكنه لم يستطع تجديد تاشيرته، فاضطر إلى العودة إلى أفغانستان حيث عمل ما بين ١٩٨٠ و١٩٨١ في المناجم، وهو الإطار الذي دارت فيه أحداث روايته الأولى «أرض ورماد» (صدرت بترجمة عربية، لإسكندر حبش، عن دار الآداب في بيروت). في العام ١٩٨٤ وبعدما تدهورت الحالة في بلاده، قرر المغادرة فذهب بداية إلى باكستان، ومن ثم إلى فرنسا حيث التحق بالجامعة ليحصل على دكتوراه بالاتصالات البصرية. وبعد روايته الأولى، التي حولها بنفسه لاحقا (عام ٢٠٠٤) إلى فيلم سينمائي (حاز جائزة «نظرة إلى المستقبل» في مهرجان كان)، وصله خبر موت أخيه في إحدى المعارك في أفغانستان، فعاد إلى الكتابة لينشر «ألف منزل للرعب والموت»، عام ٢٠٠٢، «العودة المتخيلة»، عام ٢٠٠٥. روايته الأخيرة، «حجر الصبر»، حازت جائزة غونكور للعام ٢٠٠٨.

عتيق رحيمي: ألف منزل للحلم والرعب، ترجمة: إسكندر حبش
الطبعة الأولى ٢٠٠٩

تلفون وفاكس: ٦٦٨١١٨ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
Atiq Rahimi: mille maison du r êve et du terreur

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

إهداء المؤلف

إلى أمي

إلى أحلامها المتلاشية.

طالما أن النوم لا يساوي اليقظة، فلا تَنم أبداً!

(جملة) شمس الدين التيريز، القرن الثالث عشر

مقالات ٦/ ٦٦٢

- أبتاه؟

ـ ملعون هو أبوك؟

هل أنا في الظلام أم أن عينيّ مغمضتين؟ ربما الأمران معا. إنه الليل وأنام. لكنني مع ذلك أفكر، كيف يمكن لذلك أن يحدث؟

كلا. أنا مستيقظ، لكن عينيّ لا تزالا مغمضتين. كنت في طريقي لأن أغفو، فصرخ طفل «أبتاه!»

أيّ طفل؟ كيف لنا أن نعرفه؟ لا شيء سوى صوته. ربما كنت ذلك الطفل، الذي يبحث عن والده.

ـ أبتاه؟

الصوت نفسه مرة ثانية! لا أحلم هذه المرة. يتراءى لي أنني أسمعه فوقي. عليّ أن أفتح عينيّ.

ـ من أنت؟

ينقصف صوتي في صدري. ألم حاد يثقب صدغي. يصبح الحجاب الأسود أمام عيني أكثف والصمت في روحي أثقل.

أين رحل الطفل؟ كان هناك ألم كبير في صوته. رائحة أيضاً. رائحة طين، كما لو أن الصوت يصعد من أعماق بئر، بئر من دون مياه، مليء بالوحل.

ـ أبتاه!

من يعرف، ربما سقط طفل في بئر أو في حفرة. ينادي والده لنجدته. لكن أيّ بئر؟ أي حفرة؟ ألستُ في المنزل إذا؟ بالطبع بلى، أنا في سريري، في عزّ نومي. أنام وأشعر بالعطش، وأحلم ببئر من دون مياه.

ـ أبتاه؟!

كلا، هذا الصوت لا يأتي لا من قعر بئر ولا من حلم. إنه هنا، فوق رأسي بالضبط. أشعر بتموجاته؟ أشعر بنفحة حارة وقلقة تطرد الكلمات وتحملها إلى أذنيّ الجامدتين.

لماذا لا أستطيع رؤية الطفل؟

ـ أبتاه!

ـ اسكت! عُد إلى الداخل!

ما هذا الصوت الثاني! أهي أمي؟

ـ أمّاه!

تموجت الصرخة في حلقي الجاف. لا زلت أحلم؛ كلا، ليس حلماً، إنه كابوس. أجل، في الكوابيس، تكون الصرخات مكبوتة؟ في الكوابيس، نحس بأننا مستيقظون وترفض العينان أن تنفتحا والذراعان أن تتحركا. نشعر بالصمت والثبات.

كان جدي يردد قول دام الله سعيد مصطفى بأنه خلال النوم، ترحل الروح بعيداً، وإن حدث أن استيقظتَ قبل أن تعود إلى جسدك، فستجد نفسك في كابوس بلا نهاية، غارقا في الذهول والرعب، بلا صوت وبلا قدرة، إلى أن تعود إليك. كان جدي يقول، إذ ما توفيت جدتي في الغارة فلأنها رغبت في مغادرة سريرها قبل أن تعود روحها إلى جسدها.

عليّ بالضبط أن لا أنهض! لا أريد أن أبقى ممددا حتى عودة روحي! لا أريد أن أفتح عينيّ أيضا! ولن أفكر، بدءا من هذه اللحظة، في أيّ شيء. لأنك حين تذهب إلى السرير، ليس لديك سوى شيء واحد، أن تتلو صلاتك. لا تفكر في أيّ شيء آخر. في السرير، تصبح الأفكار أشياء شيطانية. كلّ هذه الأمور رواها دام الله سعيد مصطفى إلى جدي، وقد رددها جدي علينا. سأتوقف عن التفكير. سأتلو صلاتي! وذلك حتى تعود روحي سريعاً. بسم الله..

أسقط. أتدحرج تحت ركلات الأحذية، إلى حفرة مليئة بالوحل.

لقد شتموني:

ـ ملعون هو أبوك!

قبل أن أغفو، لربما وضعت يدي على صدري ورددت مئة مرة أحد أسماء الله الحسنى، التسع والتسعين. الباعث، مرة واحدة، الباعث مرتان، الباعث ثلاث مرات... كان جدّي يردد قول دام الله سعيد مصطفى، بأن لهذا الاسم حسنة ترويض كلّ مخلوقات الكوابيس، الباعث أربع مرات، الباعث خمس مرات، الباعث ست مرات...

تمتزج مع رائحة الطين رائحة دماء.

ـ أبتاه!

ألست أحلم بكابوس؟ يبدو لي صوت الطفل حقيقياً مثل رائحة الدماء والطين.

ـ من أنت؟

لا يصل صوتي إلى حلقي. يتوه في روحي وينطفئ. عليّ أن أفتح عينيّ... لا أرى شيئاً.

الظلام... ومن ثم لا شيء.

كلا، لست نائما. أنا فريسة القوى اللامرئية. جاءت الجان لتقف على صدري. كان جدي يقول إنه، ووفقا لدام الله سعيد مصطفى ـ الذي كانت سلطته تعادل على الأقل سلطة عشر ملالي ـ حين لا تكون هناك نسخة من القرآن في غرفة ما، فإن الجان تبني فيها عشها، وفي الليل، وبينما أنت نائم وفيما روحك قد غادرت لتتنزه، تأتي كي تنقض على روحك. تتمركز على صدرك، تربط لك ذراعيك، تكممك وتعصب لك عينيك. تبدأ بمناداتك باسمك، بصوت عال، وهي تقلد أصوات أقربائك، عليك عندها أن لا تجيب على صراخها لأنها تستحوذ عليك. ليس أمامك سوى شيء واحد تقوم به، أن تتلو صلاتك! أتلو، باسم السماء! وإلا لن ترحل الجان وطالما بقيت على صدرك، فان روحك لن تعود أبدا.

ـ يا أخي!

كلا. إنها ليست أمي، إنها أختي بارفانا.

ـ بارفانا، يا جميلتي، هل ناديتني؟ اطردي الجان من على صدري! هل تسمعين صوتي يا بارفانا؟

كلا إنها لا تسمع. تحبس الجان صوتي في صدري.

لو كانت تستطيع أن تراها على الأقل!

ما العمل لتتمكن بارفانا من رؤية الجان!؟ لا يملك القدرة على ذلك أيا يكن! كان جدي يقول بأن دام الله سعيد مصطفى يستطيع هو وحده أن يراها لقد جعلها من عبيده بفضل كثرة صلواته وأدعيته. لقد خضعت الجان له. كانت تنقل له أخبار الجميع، وحذاري من الذي يتفوه بعبارة شائنة أمامه أو في ظهره، لأن الجان. . .

من يعرف، ربما كانت بالضبط هذه الجان خادمات دام الله سعيد مصطفى المطيعات. كان جدي يظن انه يأويها بين جدراننا، ما جعلنا أكثر ليونة. بيد أنني كنت أشتم الجان. في الليل، كنت أذهب مع ابن خالتي، للتبول على الشجرات الكبيرة، الموجودة في أربع جهات الحدائق السرية، عند أسفل الجدار المهدم، آملين أن نكون قد تبولنا على جان دام الله سعيد مصطفى. هذه الليلة، جاءت الجان بنفسها للتبول على صدري كله.

لو كانت بارفانا تستطيع رؤيتها، لخلبتها.

ـ بارفانا، يا أختي الصغيرة، ارحلي بعيداً، لا تبق هنا!

لقد خنقت الجان صوتي في أعماق حنجرتي.

صوّب الضابط باتجاهي نظرة مليئة بالحقد وبدأ بالصراخ:

ـ إن الكومندان يضاجع أختك!

مزقت ضربة عنيفة من الكلاشينكوف أحشائي. لم أعد أرى أمامي سوى الظلام. سائل حازر يصعد في حلقي، يملأ فمي، انبجس على كتف الضابط، على سلاحه، على صورة حافظ الله أمين[1] التي كانت معلقة على مرآة «الجيب» العاكسة... توقفت السيارة. أنزلني جنديان. تحت ضربات أحذيتهم تمرمغت في حفرة مليئة بالوحل.

شتماني:

ـ ملعون هو أبوك!

(١) حافظ الله أمين (١٩٢٩ ـ ١٩٧٩) كان أحد دكتاتوريي النظام الموالي للسوفيات؛ استولى على السلطة في أيلول ١٩٧٩ بعد أن قتل الرئيس الأسبق تاراكي، لكنه أبعد بعد عدة أشهر من قبل غريمه بابراك كارمال الذي ثبتته الجحافل السوفياتية في السلطة.

ـ يا أخي!

لا زالت بارفانا قربي.

ـ يا بارفانا يا صغيرتي، هل أنت حقا هنا؟ إن كنت أنت، ابقي واتلوي صلاتك! قولي آية من القرآن واطردي الجان من على صدري! يا حبيتي يا بارفانا، لقد ذهبت روحي لتتنزه في شوارع المدينة المعتمة، وقعت في أيدي الجنود، فجاءت الجان لتستولي على جسدي. لقد مرغوا روحي في الوحل، جرحوها. بارفانا يا صغيرتي، ابقِ إلى جانب أخيك، لتتلوي القرآن، لتطردي الجان، لتعود روحه المغتالة إلى جسده! بارفانا؟

رحلت بارفانا. غادرتني. ظنت أني نائم. فهمت بأنني كنت أسير الجان.

أصبحت صلاة الفجر قريبة. بعد الصلاة، ستأتي والدتي إلى جانبي. هانئة ومطمئنة. كما العادة ستصلي بصوت خفيض إلى جانبي كي تباركني. إنها أنعم من هواء الصباح. عند ذاك ستهرب الجان. سأستطيع فتح عينيّ مجددا، وبدلا من أن أتذمر كما أفعل دائما، سأبتسم لوالدتي. سأقبل يديها. سأشرب شرابها المقدس. سأسجد أمام الله؛ سأعلق في عنقي الحجاب الذي أعطاه دام الله سعيد مصطفى لجدي؛ سأومن بالملكوت وبأهله؛ لن أهمل

روحي مجددا. في المساء، كلّ مساء، سأتوضأ وأصلّي. لن أمارس العادة السرّية في سريري مجددا. وبحكمة، سأشبك يديّ على صدري وأردد، مئة مرّة، اسم الله، الباعث، الباعث، الباعث...

ـ الكومندان يضاجع أمك!

شتمني الضابط قبل أن يصدر أمره للجنديين بأن يضعاني في السيارة العسكرية. هكذا وجدت نفسي بينهما مجدداً. بدأ «الجيب» سيره. أثارت فيّ الارتجاجات رغبة التقيؤ. وضعت يدي على كتف الضابط الجالس قدامي وقلت له بصوت خسيس:

ـ سيدي . . .

نظر إليّ الضابط نظرة مليئة بالكراهية. ومن جديد بدأ بالصراخ:

ـ إن الكومندان ينكح أختك!

خيط من المياه الباردة على وجهي، يغسل - من على شفتيّ ومنخريّ وعينيّ - طعم الدم الفاتر، رائحة الطين اللزجة، ظلمات الليل الثقيلة. تعتريني رعشة. عليّ الاقتناع بأن روحي قد عادت وبأن الجان قد رحلت. عليّ أن أفتح عينيّ في هذه اللحظة... تحت الألم الواخز ينثني جفناي أكثر. أشعر بعينيّ تتحركان تحت جفنيّ. هل أستطيع أن أحرّك ذراعيّ؟ إنهما يتحركان. هل يمكن لي أن أستيقظ؟ ربما.

حين سكبت الماء، طردت بارفانا الجن. نجحت روحي في الهرب من أحذية الجنود. انتزعت من الطين وها هي الآن تتسلّل بخفة إلى جسدي. بيد أنها جريحة ومغتالة. هذا ما يدعى «إتحاد الجسد والروح»، يشعر جسدي بعتمة روحي.

- هل تشعر بتحسن يا أخي؟

- بارفانا؟

لا يرنّ صوتي المحطم إلاّ في داخلي.

- هل تستطيع النهوض؟

كلا، هذا الصوت ليس صوت بارفانا.

- من أنتِ؟

- ماذا؟

إنها لا تسمع. عليّ أن أسترد أنفاسي. الهواء، اللاذع، يحيي جراح روحي. يشعل الألم حلقي. عليّ أن أفتح عينيّ. برغم الألم، فتحت جفنيّ.

لم أر سوى السواد مجدداً. هل يمكن أنني ما زلت أحلم بعد؟ الباعث... كم؟ حلم في الحلم! الباعث... كابوس في الكابوس! الباعث... ظلمة في الظلمة! الباعث...

ـ انهض يا أبتاه!

يقترب صوت الطفل. أرى رأسه الصغير ينحني صوبي؛ يبتسم، ومن ثم يستدير ويقول شيئاً من ظهره:

ـ أرأيت يا أمي، لقد نجحت في إيقاظ والدي من النوم!

هل أنا من يدعوه «أبي»؟ أحاول رفع رأسي. خدي الأيمن مطليّ بالطين.

تمتزج رائحة الدم بالوحل، مثلما تمتزج عتمة الليل ووجه الصبي. يحل الليل البهيم، مرة أخرى، في عينيّ.

ناداني صبي «أبتاه». أي نهاية جميلة لهذا الكابوس! لو كان جدي لا يزال على قيد الحياة، لذهبت لأجلس على طرف سجادة الصلاة التي كنا نفردها دائما قرب قدميه كي أروي له كابوسي هذا. لكان ذهب عندها وجلب، من تحت وسادته، كتاب تفسير الأحلام، الذي يقول عنه بأنه هدية من يد دام الله سعيد مصطفى وهو على فراش الموت. لكان نزع عنه شريط المطاط الذي كان يمسك بغلافه الرث، وسوّى على أنفه نظارتيه المكبرتين، وتمتم بآية قرآنية. في البداية، لكان قرأ بصمت المقاطع التي يمكن لها أن تضيء حلمي، ومن ثم، وبعد أن يجد صلة العلاقة، يعطي استنتاجاته:

ـ في الحلم، يمثل الصبي العدو. الطفل المجهول، هو عدو لا يشك فيه أحد. يرمز الطين إلى الخوف الذي يسببه هذا العدو... والمياه الباردة، هي دليل على عدم إيمانك.

بعد ذلك، ينزع خاتمه الفضي المحفور عليه اسم الله ـ الجبار ـ ليضعه في إصبعي ليضيف أنه سمع دام الله سعيد مصطفى يقول إنه إذا رددت، خلال يوم، من الصباح وحتى المساء، ٢٢٦٠ مرة اسم الله هذا، لحُرستَ من الأرواح الشريرة ومن لعنات أعدائك... الجبار مرة، الجبار مرتان، الجبار ثلاث مرات...

ـ لقد قال أبي شيئاً ما.

الجبّار... كم مرة؟ هذا الطفل الغريب، هذا العدو الذي لا يشك فيه أحد، يمنعني من العدّ. في الواقع، هذا المخلوق ليس طفلاً، إنه من الجان. يزعزع روحي كي يوقف عدّي. يرعبه اسم الله. الجبار، الجبار، الجبار... ألم يكن جدي يقول بأن الجان هم صغار مثل الأطفال؟ الجبار...

ـ عُد إلى الداخل يا يحيى!

الجبار. أرى جسد الجان، الصغير، وهو يتحرك في قلب ضباب أسود اللون. الجبار. ليبتعد عني. الجبار. ليبتعد أيضاً. الجبار. ليتوقف. الجبار. أنجح في تلك اللحظة بتمييز المكان الذي ثَبَتَ فيه. يقف في شقّ أحد الأبواب. يظهر وجه امرأة أمام عينيّ. الجبار.

ـ يا أخي...

أيمكن لهذه المرأة أن تكون من الجان بدورها؟ الجبار. أم أنها مخلوق شرير آخر؟ الجبار. عليّ أن أرفع رأسي.

ينفجر صدغاي من الألم.

بدأت أميز عدداً من الأشياء، لكني لا أستطيع أن أتحرك. عظامي محطمة، شراييني متصلبة، رأسي منفجر، عضلاتي ممزقة... كلا، لست في كابوس ولا أسير الجان، أنا ميت فقط.

ـ ما اسمك؟

كما لو أنه غير مسجل على بطاقة هويتي! فكرت بذلك رغما عني، ومع ذلك أجبت الضابط:

ـ فرهاد.

قارن الضابط ما بين ملامح وجهي وصورتي على بطاقة الهوية.

ـ اسم الأب؟

ـ مرداد.

ـ عمرك؟

ـ ولدت العام ١٣٣٧[١].

ـ لست أعمى. إنه مسجل هنا. سألت عن عمرك؟

ـ عليّ أن أحسب ذلك، إذ يتغير الأمر كلّ سنة.

انتظر الضابط كي أنهي حسابي وبقينا صامتين نحن الاثنين. لماذا لعبت هذه اللعبة الصغيرة؟ من يعرف. أهي حماقة الشباب؟ ملأ صوت الضابط كما تنفسه الذي يحمل معه دخان سيكارته ورائحتها ظلام الشارع:

(١) التقويم هنا بالهجري أي سنة ١٩٥٨ م.

ـ ماذا كنت تفعل خارج منزلك في مثل هذه الساعة؟

قمت بإلقاء تحية كتلك التي يلقيها الجنود، وأنا أخبط نعليّ يدي اليمنى فوق حاجبي، قائلاً:

ـ سيدي الضابط، لم أخرج من منزلي، بل كنت عائداً إليه.

الضابط ينكح أمك!

أنا ميت. تخبرني رائحة الطين هذه بأنني ميت. ألم يُقل إنّ الله أخذ التراب ليصنع منه الإنسان ونفخ فيه الحياة؟

أنا ميت وعدت إلى التراب. أنا ميت، أوسعني الجنديان ضرباً. أو ربما ضرباني بسلاحيهما. في أيّ حال، لست في حلم كما أني لست أسير الجان، أنا ميت، وكلّ ما أراه هو ما كُتب في «كتاب الأموات»[١].

كان جدّي يرى وعلى قول دام الله سعيد مصطفى ـ الذي يستدعي بهذا الخصوص تعاليم الإمام الغزالي ـ أنه لحظة الموت، وقبل أن تغادر الجسد نهائيا، تأتي الروح لتتمركز بأسرها في القلب. في تلك اللحظة بالذات، يضغط ثقل الروح صدر الميت وليُشل لسانه. في أي حال، ألم تلاحظ أنه بعد أن تتلقى ضربة قوية على صدرك تصبح عديم الصوت بشكل مؤقت؟

أجل، أنا ميت وقد تمّ دفني. ها أنا في مقبرة العائلة، ربما ـ من يدري؟ ـ بالقرب من جدي، أو بالقرب من طفل وأمه. لقد قال دام الله سعيد مصطفى لجدي يوما، إننا ما أن نصبح تحت الأرض، حتى يرى الميت، أول من يراه، جيرانه في المقبرة ومن ثم أقرباءه الذين سبقوه إلى الموت.

(١) المقصود هنا كتاب الغزالي (١٠٨٥ ـ ١١١١) «الدرّة الفاخرة»، وهو كتاب يعالج بعض التعاليم العائد «للحياة المستقبلية» ليشكل «كتاب الموت في الإسلام» مثلما يصفه بعض المفكرين والعلماء.

من يعرف؟ ربما جاء جدي للقائي. سيأتي. سيأتي حتما ليقول لي:

- إذاً، هل تصدق الآن كلمات دام الله سعيد مصطفى؟ ألم أقل لك ما كان يردده: ينتظر السكير والفاسد في القبر ملائكة مرعبون ذوو وجوه سوداء. يتوجه ملاك الموت إلى الراحل بالقول: «أيتها الروح الملعونة، اخرجي من هذا الجثمان واخضعي لغضب الله». ينظر الملاك إلى الروح عبر سهم مخضّب منذ ليل الأزمنة بالسُمّ وبنيران الجحيم، فتهرب الروح في جميع الاتجاهات مثل قطرة زئبق. لكنها لا تستطيع الهرب من ملاك الموت. تصل ملائكة أخرى وتحمل الروح إلى السماوات. يأمر الله بأن يُكتب اسم الفاسق في سجل الجحيم. يعيد الروح عند ذاك إلى الأرض لتستعيد مكانها في جثمان المتوفي. حينئذ يصل الملاكان أنكر ونكير إلى القبر ويستجوبان الميت:

«قل لنا من هو إلهك؟ ما هو دينك؟ من هو محمد؟ وعلى كلّ سؤال يجيب الفاسق: «لا أعرف». حينذاك يقول الله للملاكين: «مخلوقي هذا يكذب: أفردوا قرب قدميه بساطا من نار وافتحوا له باب جهنم كي يعرف الحرارة والنيران!» بعد

ذلك، يبدأ القبر بالضغط على جسد المتوفي لغاية أن يحطم له ضلوعه. . .

ـ يا أخي! انهض، عُد إلى المنزل!

هل هو ملاك الموت أم أنها أختي؟ أشعر بيدين ساخنتين على عنقي. ثمة رعشة تجعل رأسي يدور، تعتري ساقيّ. أرتجف من داخلي أيضاً ـ من الألم، من البرد، من برودة القبر، من برودة الموت.

يوقفني، ملاك الموت ـ أو أختي ـ. يغطي شعره عينيّ. يدور كلّ شيء حولي. أشعر بروحي تهرب من مكانها. ثمة شيء يغلي في داخلي، شيء كالمياه أو بالأحرى كالزئبق، يصل إلى حلقي، ينبجس إلى الخارج. أعود لأغرق في الطين.

القبر معتم أكثر من الليل.

ركبتاي على الأرض، يداي خلف رقبتي. فتّش الجندي جيوبي. أخذ بطاقة هويتي الجامعية. عاد إلى «الجيب» وأعطى الوثيقة إلى الشخص الجالس في مقدمة العربة. تبادلا بعض الكلمات ليصرخ الجندي بعدها:

- اقترب!

اعتقدت أن ركبتي قد خرقتا الأسفلت وغرقتا في الأرض. لا قوة لي على النهوض.

- هل أنت أصمّ؟ قف! اقترب!

نزعت نفسي عن الأرض حتى أني تقدمت خطوة إلى الأمام. لكني ومن جديد بقيت مسمّراً في مكاني، ككتلة حجرية. كتلة ثقيلة وغير متحركة.

- هل تفهم ما نقوله حين نتحدث إليك؟ اقترب؟!

بدأ الجندي بالصراخ. اجتاح صوته الشارع. ارتجف الشارع. أو ربما قلبي. شعرت بنفسي كأنها أصبحت قشّة، تطايرت نحو «الجيب» من جرّاء نفحة هواء. وجه الضابط الجالس في مقدمة «الجيب»، الحامل أوراقي بين يديه، مصباحه على وجهي. أغمضت عينيّ، اللتين أغشاهما الضوء. بيد أن زعيق الضابط سرعان ما فتحهما مجدداً:

- ما اسمك؟

أنا ميت. ميت، حتى قبل أن أنوء تحت أحذية الجنود. حطم القبر ضلوعي. تقيأت روحي. حضر ملاكا الموت إلى قبري بوجهيهما الأسودين القميئين وشواربهما الغليظة وكعوبهما العالية. ضرباني بأخمص الكلاشينكوف.

أنا ميت. في المقبرة، كان جاري طفلاً لم يتوقف عن مناداتي:

ـ أبتاه! انهض! لقد استيقظت هذه المرة. أنت أيضاً استيقظت بدورك!

كان جدي يقول إنه، وبحسب دام الله سعيد مصطفى ـ الذي يستدعي بهذا الخصوص تعاليم المبجل سيد بن زبير ـ حين يموت الإنسان ويلتحق بالمطهر، فإنه يشاهد أطفاله ـ أطفاله الذين ماتوا قبله ـ لكنهم يبقون غرباء عن بعضهم البعض، كما لو أن والدهم جاء من كوكب آخر.

هل كان عندي ولد إذاً؟

لماذا يسكب ملاك الموت المياه على وجهي بدون توقف؟ هل هذا عقاب إضافي يمارس على الموتى؟ على الرغم من أن «كتاب الموت» لا يشير إلى ذلك مطلقا! بالتأكيد، هو ملاك الموت الذي يرغب في تركي صاحيا كي أشعر عميقاً بألم روحي وعذابها.

تنفتح عيناي. أرى وجه الطفل كما وجه الملاك. ألمح، خلفهما، باباً مفتوحاً. إلى الطرف الآخر من الباب، ما من موقد جمر أو جحيم. ربما لم أكن فاسقا إلى هذا الحد. في الواقع، كان الخمر خطيئتي الوحيدة. لم أقتل أحداً مطلقاً.

كلا. ما فعلته كان بدون أهمية. ما لم أقم به هو المهم في نهاية الأمر. هذا هو أيضاً درس إضافي من دام الله سعيد مصطفى. لم تقم صلاتك. لم تحج إلى مكة. لم تتصدق!... لم تقم بالحرب المقدسة[١]! لست غازياً[٢] أو شهيداً!

لكني بخلاف ذلك، أنا جزء من الملحدين. القضية فقط أن ملاكي الموت لم يقوداني بعد إلى السماء السابعة كما أنهما لم يسجلاني بعد في سجل الجحيم.

---

(١) المقصود، الجهاد.

(٢) المقصود هنا، ذاك الذي حارب، بنجاح، ضد المشركين.

يسكب ملاك الموت المياه في فمي. عليّ أن لا أشرب هذه المياه أبدا. «إذا عرضوا عليك المياه وأنت في قبرك عليك أن ترفض ذلك بشكل مطلق». كان جدي يحفظ هذا الأمر عن دام الله سعيد مصطفى، وقد ذكرها بصوت عالٍ فوق قبر جدتي، يوم دفنها، على أمل أن تسمع كلامه:

ـ آه يا جدتي التي ترتاح بدون حياة! يعذبك العطش في القبر بقسوة! لكن، احذري! سيحضر إبليس وفي يده كأس ماء. سيهمس في أذنك اليسرى: «إن كنت تريدين شرب الماء، قولي أولاً إنّ ما من أحد خلقك!» إن رفضت ترداد هذه الكلمات مثلما رفضت الشرب، سيعود أدراجه ويهمس هذه المرّة في أذنك اليمنى: «هيا اشربي!» احذري! آه يا جدتي التي فقدت الحياة! إن شربت ماء إبليس فستلفظن هذه الكلمات أيضاً وتقولين إنّ المسيح هو ابن الله. آه يا جدتي، احمي نفسك من الشيطان! لا تسمعيه! ارمي مياهه أرضا!

ستتحول مياه إبليس إلى خلٍّ وتلهب حلقي. سأبصقها. يجتاح عينيّ طين القبر وظلماته.

ثمة يدان ترفعان رأسي. يدان حارتان وعطفوتان. يدان قلقتان؛ ترتجفان.

- أهي أنت يا أمي؟

تداعب خصلة من الشعر الأمومي وجهي. خصلة ناعمة، وديعة.

- هل استيقظت يا أخي؟

ليست أمي. من هي إذا؟

أفتح عينيّ برغم الألم. لا أميز إن كانت العتمة تأتي من الليل أم من خصلة الشعر. أبعد رأسي قليلاً. خلف خصلة الشعر الطويلة، أكتشف وجه امرأة مجهولاً، وفي مكان أبعد قليلاً، وجه طفل يقول:

- أبي!

تداعب يده شعري.

- هل استيقظت يا أبي، هل أنت في المنزل، انهض!

الصوت عينه مرة أخرى، الوجوه ذاتها مرة أخرى؟ كلا. القضية أنني أنام دائما. يجب عليّ أن أغلق عينيّ. هذا ما أفعله.

- توقف!

توقفت. لا. لقد صُعقت. صعقت بمرأى الجندي الذي يصوب سلاحه بشكل مستقيم تجاهي. يقف بالقرب من «جيب». بهرت المصابيح عينيّ. أرفع يدي كي أحمي نفسي من النور المغشي البصر.

- توقف! يداك خلف رقبتك!

أصابني الجفاف وأنا واقف مثل شجرة ميتة. شجرة بدون جذور، على أهبة أن تسقط. الجندي، الرشاش، «الجيب»، كلّ شيء بدأ يدور من حولي. أوقفت قرقعة محول انطلقت فجأة دوران الجندي ومحرك الجيب. أصبحت الشجرة العارية كتلة من الصخر الجامد. انبثق جندي ثان بالقرب من الجيب. اقترب مني، وهو على استعداد ليطلق النار، قائلاً:

- ما هي كلمة السرّ؟

قلت:

- أمرّ.

صرخ الجندي الذي خرج عن أطواره:

- هل لديك كلمة السرّ؟

- لكن كم هي الساعة الآن؟

حاولت أن ألقي نظرة على ساعة يدي.

ـ لا تتحرك!

انغرست سباطانة الكلاشينكوف الباردة في بطني. تحرك لساني:

ـ كلمة سرّ منع التجول؟ لا، لا أعرفها.

فكرت القيام بحركة كي أقترب من الجندي لأهمس له في أذنه بأني شربت قليلاً ونسيت أمر منع التجول. أسقطت عليّ وحشية الجندي وضربة الكلاشينكوف في أحشائي كلّ ثقل العالم وظلام الليل.

ـ على ركبتيك!

هل يمكن أن نجد أبسط الحقائق، في هاتين اليدين اللتين ترفعان رأسي، في خصلة الشعر هذه التي تداعب وجهي، في هذا الطفل الذي يناديني «أبي»؟ ألا يتراءى في الحلم، بالضبط، كلّ شيء أكثر واقعية من الواقع. في العمق، هكذا يعمل الفكر الإنساني. علينا أن نؤمن بأن الإنسان يميل إلى أحلامه أكثر ممّا يميل إلى الواقع. وإلا كيف أمكن لكل هذه الثورات والحروب والإيديولوجيات أن تنوجد؟ كيف هذه...

ـ أيمكنك النهوض يا أخي؟

أفتح عينيّ على الرغم من الكرب. لم يتغيّر شيئاً. المرأة نفسها دائما. الطفل ذاته دوما.

لم يشرق النهار بعد. يتأبد الليل. المرأة واقفة. أنا ميت. المرأة ـ أو الملاك ـ تجرّ جسدها. إلى أين تأخذني؟ إلى أي لجّة؟

تفوح من نَفَسي رائحة الكحول. تفوح من خياشيمي رائحة الطين. وقعت في الخطيئة. تؤلمني جروح الهراوة التي ضربني بها أنكر ونكير.

ـ يا ملاكي العزيز! نجني من هذا! يل الهي، أتوسل وداعتك! اغفر لي!

من أي باب من أبواب الجحيم سنمرّ؟ لماذا أغلقه الملاك؟

ـ حررني أيها الملاك. . .

أفلتتني يدا الملاك. أطفو ومن ثم أهبط على الأرض. أصغي إلى الصمت.

ـ أتريد ماء يا أخي؟

تبتعد نظرتي عن هلال القمر لتقف على الوجه الأنثوي الذي ظهر مرّات عدة في كابوسي. المرأة تقف حالياً إلى جانبي، حاملة بيدها كوب ماء؛ وأنا، أحرّك قدميّ مثل شخص ضائع.

يفترس الألم جسدي. أرفع رأسي. أجدني على شرفة. نور مصباح نفطي أصفر، يتسرب عبر نافذة تفضي إلى الشرفة يقطع شكل المرأة على خلفية الليل المغلقة.

كلا. لست في حلم أو كابوس أو مطهر. أنا مستيقظ ولا أزال حيّا! أرأيت، أهمّ بتناول كأس الماء من يديّ المرأة وأشرب محتواه. أشعر برحلة الماء إلى داخل جسدي؛ أحس بحلقي يحترق، بعظامي التي تؤلمني... كلا، لا علاقة لهذا كلّه بأيّ حلم. أنجح بتمييز ملامح المرأة الرقيقة، خصلة الشعر التي تخفي نصف وجهها.

ـ أتريد المزيد من الماء يا أخي؟

أفهم كلماتها أيضاً. حتى أنني أستطيع أن أجيبها:

ـ شكراً.

لا يدعني الألم أكمل حديثي، أن أسأل أين أنا، ولماذا أنا هنا.

اختفت المرأة في عتمة الرواق. ظهر عبره الطفل، حاملا وسادة كبيرة بين ذراعيه.

ـ أمسك بها يا أبي، ضعها تحت رأسك!

لماذا يناديني هذا الطفل يا أبي؟ يضع الطفل الوسادة مقابل الحائط، تحت شباك الغرفة التي يتسلل منها نور المصباح النفطي الأصفر. أجرّ نفسي حتى الوسادة وأتكئ بظهري عليها. يزحف ظلّ ببطء على أرضية الشرفة. ألتفت لأنظر خلفي. في الغرفة التي يغمرها المصباح بهالته الشاحبة والضبابية، أرى جسدا يبتعد ببطء، بخطوات متزنة، باتجاه الرواق. ترسم ذراعاه المعقوفتان هلالين حول خصره. اختفى الجسد في الظلمة التي تغمر كلّ ما يقع وراء الباب.

ألقي نظرة ثقيلة، كئيبة نحو الطفل الجالس أمامي والذي يحدق بي، حيث ترتسم ابتسامة صغيرة على شفتيه. أضع رأسي على الوسادة مجدداً وأغمض عينيّ. لا أريد التفكير لا بهؤلاء الأشباح ولا بهذه الأحلام.

أضيف كلمة إيمان على وجود الكوابيس.

- أبتاه!

أبدا. لن افتح عينيّ مجدداً. أستسلم للكابوس مجدداً. أنا أسير أحلامي. لا اسم من أسماء الله نجح في إنقاذي.

الكوابيس أقوى من الإيمان. لم تعد روحي ملكي.

كان جدي يقول، انه وبحسب دام الله سعيد مصطفى، حين يفقد إنسان السيطرة على روحه، عليه أن يردد اسم «المميت» بينما يُكتف يديه على صدره.

أشعر بيديّ الطفل الصغيرتين على جبهتي.

المميت، المميت...

- أتشعر بتحسن يا أبي؟

تعبت من هذه الكوابيس كلّها. اتركيني بسلام! السلام! أتسمعينني؟

تداعب يد الطفل جبهتي. أراه. يضحك. أرغب في أن

أضحك فعلاً، بدوري. أن أضحك على نفسي. أن أضحك على عجزي. أن أضحك على العالم الذي يسمونه الملكوت... على الجان...

ـ عد يا يحيى!

رنّ صوت والدة يحيى في عتمة الرواق.

ـ لقد شفيَ أبي يا أمي، لقد ابتسم!

ـ قلت لك أن تعود وتدخل! اذهب للنوم!

جاء الصبي ليضع قبلة على جبهتي؛ كان الحنان يطفح من عينيه. ذهب راكضاً صوب الرواق وصوب صوت والدته.

ما الذي جرى؟ ما هذا اللبس؟ لِمَ لا ينتهي هذا الليل؟ من كان أولئك الجنود ولمَ هذا الاستجواب؟ كيف حدث أن أوتي بي إلى هنا، عند هذه المرأة وهذا الطفل؟ لماذا يناديانى بهذا الشكل، هي «بأخي»، وهو «بأبي».

لمَ لم يأخذاني إلى عند والدتي؟

ـ اشرب قليلاً يا أبي!

عاد الصبي حاملا كأس ماء. أخذته بيد مرتجفة، بنظرة مشوبة

بالأسئلة، وحملته إلى شفتيّ. لسعني لساني ولثتي؛ أحسست برحلة السائل في جسدي. أحسست بعجز في متابعة الشرب، أعدت الكأس للصبي، رفعت ببطء جسدي المحطم وأشرت له بأن يقترب. سارع يحيى للجلوس قربي. بما أبدأ؟ أين أنا، لماذا أنا هنا، أو بالأحرى لماذا يناديني يا «أبي»؟

ـ إلى أين رحلت يا أبي؟

أرجع سؤال الصبي تساؤلاتي الخاصة إلى روحي المضطربة. من أين أعود؟

ـ قلت لك يا يحيى أن تذهب إلى النوم!

ما إن نادته والدته حتى نهض الصبي وذهب عبر الرواق، باتجاه نور المصباح النفطي.

من أين أعود؟ ماذا لو كنت في العمق ضحية لفقدان ذاكرة! هذا ممكن، لقد سبق أن حدث لأناس أن فقدوا ذاكرتهم من جراء صدمة، حتى لم يعودوا يتذكرون الماضي بعدها، ولا أن يعرفوا أسماءهم وهوياتهم. لم يتذكروا بعدها زوجاتهم وأطفالهم ومنازلهم. . . تمحى ذاكراتهم، مثل صفحة بيضاء، خالية من الكلمات، خالية من الأرقام.

لا. لا زلت أعرف من أنا. أعرف أن اسمي فرهد. أنا ابن مرداد وولدت العام ١٣٣٧. كان جدي مريداً لدام الله سعيد مصطفى، الذي لم يره أحدٌ، ولا حتى جدتي أو أمي. وحده جدي كان يعرفه. في أيام الجمعة، وبعد عودته من الجامع، كان جدي يستدعي جميع أحفاده، فيذهب ويأتي من تحت وسادته بكتاب الأموات للإمام الغزالي، ليبدأ بإخبارنا، بالتفصيل، ما ينتظر كلّ إنسان في القبر. كنا نشعر بالخوف، ونبدأ بالبكاء وتعفير جبيننا بين أيدينا.

في الحقيقة، ألا أستعيد هنا، بدقة، ما كنت قلته في كوابيسي؟ ألا أقوم بترديد محتوى أحلامي؟ لم يعد لديّ ذاكرة، وفجأة، أصبحت أعتبر كابوسي حقيقة.

لكن لا. ما تزال لديّ ذكريات أخرى؛ تدعى أمي حُميرة، أنجبت ثلاثة أطفال، أختي بارفانا وأخي فريد وأنا. منذ أقلّ من سنتين بقليل، تزوج أبي بامرأة أخرى، أكثر شباباً. بعد انقلاب «ساور»[١] العسكري، هرب معها إلى باكستان، حتى بدون أن يُكلّف نفسه عناء تطليق أمي. لقد هجرها ببساطة. اليوم، نحن

(١) الانقلاب العسكري السوفيتي في ٢٧ نيسان ١٩٧٨.

في ٢٧ ميزان ١٣٥٧[1]. لقد اغتال حافظ الله أمين ـ مريد تاراكي المخلص ـ لتوه، معلمه المبجل كي يستولي على السلطة... ماذا أيضاً؟

أبدا. لم تُمسّ ذاكرتي أبدا. لم أتزوج مطلقا، كما لم أنجب أولاداً. ولغاية اليوم ـ ولأضع جانباً ممارستي للعادة السرية وللندم الذي يصاحبها ـ لم أتذوق بعد طعم اللذّة أبدا، تلك اللذّة التي تكتشفها بين ذراعيّ امرأة حارتين وناعمتين.

لا سبب مطلقا لأعتقد بأنني فقدت الذكرة! أو لأشك في هويتي وماضيّ. لا. لقد حدث شيء ما. ربما كان الأمر خطأ ما. سأرى عمّا قريب الأمر بوضوح. ربما أسرفت في الشراب فقط. لقد سبب لي ذلك الغثيان. أعتمت روحي وبدا لي كلّ شيء بمثابة كابوس.

ـ لا بدّ أنك تشعر بالجوع يا أخي. أتريد شيئاً لتأكله؟

كانت المرأة على عتبة الرواق، وفي يدها مصباح النفط. على ضوء هالته، يقطع الليل تقاطيع تنورتها الواسعة ليزيل الخطوط من القماشة الخضراء اللون. كانت نظرتها غارقة في عتمة الرواق.

---

(١) ١٨ تشرين الأول ١٩٧٩.

أجل أنا جائع، لكنني لا أريد أن آكل. أريد فقط أن أعرف أين أنا ولماذا أنا هنا.

ـ لا شكراً يا أختاه. لكن. . .

انبثق في الظلام، الرجل الشبح، ذاك الذي شاهدته قبل قليل، عبر النافذة التي أسندت ظهري عليها، وهو يهمهم، ليأتي ويقف خلف المرأة. تاهت نظرتي وسؤالي بين ذراعيه اللتين يتركهما بعيدتين عن جسده الأشبه بهيكل عظمي. برباطة جأش، أمسكت المرأة يد الرجل الشبح وغرقت في الرواق.

ها أنا وحدي مجدداً، فريسة آلاف الأسئلة التي تشرد بين جدران هذا الليل الغريب، الأربعة.

ذهبت مع عنايت، خلّي الوفي ونجيّ الوحيد، إلى دكان المعلّم. بشعره الطويل الطافي فوق كتفيه وجسده الصغير المخلّع وغير المتناسق، ظهر العجوز، كما دائما، من خلف مناضد الحمّص والبطاطا المسلوقة التي يعرضها. ابتسم لنا وطرد من الدكان الصبيين الصغيرين اللذين جاءا لشراء حبوب الحمّص. بدأ يضحك ولمعت عيناه. اجتاح صوته المرتعش الدكان الصغير.

ـ فتيات باخوس بانتظاركما!

جرّ ساقيه القديمتين المترنحتين وظهره المحني إلى عمق الدكان، سحب بساطا أسود وأبيض ودعانا لكي نأخذ مكانا.

ـ اشربا كأسكما بسرية لأنهم قساة!

لعلعت ضحكته الرنانة. أنزل البساط وتركنا في منأى عن النظرات. جلسنا إلى جانب الخابيتين. وجه المعلّم إليّ حديثه في البداية:

ـ أتريد الشقراء أم الصهباء؟

ـ الصهباء.

ـ محق أنت في ذلك.

سكب من إحدى الخوابي خمراً أحمر في قدح معدني. شرب هو نفسه في البداية جرعة من الخمر وقال معجباً وهو يهز رأسه:

ـ آه، لو كان حافظ بيننا، لأهداني قصيدة. اشرب وانظر إلى هذه الإلهة التي أنجبتها للعالم!

ملأ القدح المعدني من جديد ومدّ به إليّ. من ثم التفت إلى عنايت:

ـ الشقراء أم الصهباء؟

ـ الشقراء.

ـ أنت أيضاً، محق في ذلك!

أمسك بالخابية الأخرى وسكب نبيذا أبيض في قدح معدني. من ثم شرب جرعة من النبيذ قائلاً بتعجب وهو يهز رأسه:

ـ أواه! لو أنني عشت زمن بابور[1]، أعتقد أنه كان غطّى كابول بالكرمى!

ملأ القدح المعدني من جديد ومدّ به إلى عنايت.

شربنا حتى هبوط الليل. كان علينا أن نحمل المعلّم إلى منزله. جاءت زوجته، النصف نائمة، لتفتح لنا لتلعننا نحن الثلاثة. جعلتنا نضع زوجها أرضاً لتقول وهي تتذمر:

---

(١) منحدر من تامرلان ومؤسس سلالة المغول الكبار؛ أعلن بابور (١٤٨٣ ـ ١٥٣٠) كابول عاصمة أفغانستان. عرف عنه أيضاً أحد كبار هواة شرب الخمر.

ـ أريد أن أعرف هل أنتما من يشتري النبيذ من هذا الأحمق أم أنكما تزودانه به.

غلّفت ضحكة المعلّم كرمة الحديقة الصغيرة.

ـ كان يا ما كان... سكير... كان يبيع... الخمر...

عادت زوجته لتحلف من جديد.

ـ مثل شمس[1]! سيحرمك الله من القبر!

تابع المعلّم تسميع حكايته بشكل متقطع:

ـ يسأل أحدهم... هذا غريب... أتبيع نبيذا، و... مقابل ذلك، ماذا تريد أن تشتري؟

طردتنا زوجة المعلّم نحن الاثنين من منزلها لنذهب «إلى الجحيم» في عتمة الحديقة العامة. خطرت على بال عنايت فكرة أن نبول على كعب شجرة مسنّة، ضخمة، حيث تصل أغصانها إلى حديقة المكتب السياسي الواقع في الحيّ الذي يقطنه، وذلك كي يروي بولنا فاكهة الشجرة الحمراء. بدأنا التبول ونحن نقهقه من الضحك.

جمدتنا صرخة حارس المكتب السياسي في مكاننا. طردنا

---

(١) شمس الدين التبريزي.

الجندي من الحديقة تحت تهديد سلاحه. عند خروجنا، ودعت عنايت. رحل إلى جانب من الليل بينما رحلت إلى الجانب الآخر. غاب عن بالي أمر منع التجول. في منتصف الطريق، سمّرتني صرخة جندي في أرضي:

ـ توقف!

أركض. أنزلق في الليل. أخف من قشة. سياج من أشجار جافة، لكنها ما زالت مغطاة الثمار، تحاذي طريقي. يضيع الشارع في اللانهاية. أركض. يتبعني الشرطي، ثقيل مثل كتلة حجرية. يزن سلاحه طنا. يصرخ:

ـ توقف! توقف!

لا أتوقف. أركض مثل قشّة في مهب الريح. أكبر مع كلّ خطوة: أكبر على مرمى البصر. يتخطى طولي قمة الشجر. يصغر طول الجندي: يصغر على مرمى البصر. تحت مرمى بولي، بدأ يكبر الجندي: استمر في أن يكبر ويكبر! انحصر البول. ضحك الجندي. بدأت بالصراخ. زوبع صوتي في صدري. أحرقت ضحكة الجندي الشارع والليل. انهمرت يد الجندي الكبيرة على كتفي. قتلت كتفي. هزتني يده:

ـ يا أخي!

الليل أعتم من حجاب عينيّ. مددت رأسي باتجاه الصوت. أمام وجهي، قطع ضوء المصباح الأصفر خصلة من شعره في هذه الليل المنجّم.

تراجعت إلى الخلف لأكتشف، مرّة أخرى، هذه المرأة التي

يناديني ابنها يا «أبتاه». أنظر حولي. لا زلت في المكان عينه، تحت النافذة التي تطلّ على الشرفة الصغيرة.

لمّت المرأة خصلة شعرها. قطع الضوء الأصفر الليل من نظرتها.

ـ انهض بسرعة يا أخي!

ـ عفوا...

رغبت المرأة في قول شيء ما:

ـ تعال بسرعة إلى الداخل! لقد عاد الجنود.

امتلأ الشارع بالضجيج: أبواب سيارات، تعليمات عسكرية، صرير أحذية. أطفأت والدة الطفل الذي نسيت اسمه المصباح. بقيت مسمرّة في مكانها، راكعة قربي. لممت نفسي، رغم الألم، كي أقف.

وقفت المرأة بهدوء واتجهت صوب الرواق. بإصبعيها اللتين لمّتا خصلة شعرها من على وجهها، أشارت إليّ بأن أتبعها. نهضت جارّاً جسدي المحطم نحوها. دخلت في ظلام الرواق. أغلقت المرأة الباب خلفي لتتقدمني في العتمة.

ـ تعال معي إلى الغرفة الأخرى!

تركت نفسي تنساق مثل ضرير خلف حفيف تنورتها التي

دخلت إلى غرفة وتوقفت. مزق عود ثقاب، كانت تحمله في يدها، العتمة. أشعلت شمعة كان نصفها ذائب فوق مسند النافذة. غرفة صغيرة، فيها فراشان موضوعان على سجادة حمراء وسوداء، واحد بالقرب من الباب والثاني في عمق الغرفة، تحت النافذة. خلعت حذائي المغطى بالطين وجلست على الفراش الموجود إلى مدخل الغرفة. استدارت المرأة عائدة إلى الرواق.

ـ ابقى هنا الآن.

ـ اعذريني على. . .

ما الذي كنت أرغب في قوله؟ اختفت المرأة في الرواق.

استمرت الشمعة في الذوبان، بشكل أكثر التباسا مني.

استهلك الليل الشمعة. في عتمة الغرفة، قاد كربي، في عتمة الغرفة، يدي الفزعة والملتبسة، باتجاه النافذة، لترفع عنها ذيل الستارة كي أتمكن من رؤية ما إذا دخل الجنود إلى الباحة. كانت فارغة، غارقة في العتمة والصمت. أين ذهبت المرأة إذاً؟ لماذا عاد الجنود؟ من أجلي؟ ما هي تهمتي؟

عليّ أن أرحل من هنا. ما من أدنى فكرة عند والدتي عن هذا السوء الذي أصابني! ستكون في هذه اللحظة بالذات، واقفة في الباحة، متربصة خلف الباب المشقوق؛ آملة أن تسمع وقع قدميّ على الطريق ولكنها لا تسمعها. من وقت إلى آخر، تطل إلى الخارج وألف خوف يعتريها كي تبحث عيناها عني، في عتمة الليل، ولا تجدني. تشتبك يداها في اللحظة التي كانت تمتم فيها سورة قرآنية: صلاة الخلاص[١]. أغمضت عينيها. عضت على شفتيها المزرقتين ووعدت أن تذهب لتقدم نذراً إلى «الملك ذي السيفين»[٢]، إن عدت إلى المنزل بسرعة وسالما. عليّ أن أرحل.

(١) المقصود: «قل هو الله أحد، الله الصمد...».

(٢) حرفياً: شاه دو شاهشيرا: الملك ذو السيفين. هو الضريح الذي يرتفع وسط كابول، في=

أنهض وأتقدم متلمساً طريقي نحو باب الغرفة. استدليت على حذائي بسبب رائحتيهما. حملتهما بيدي، سرت على أطراف أصابعي في الرواق.

- إلى أين أنت ذاهب؟

يسقط الحذاء من يدي. كانت المرأة تكمن وراء النافذة الصغيرة عند مدخل الرواق.

- عليّ أن أرحل!

- إلى أين؟

- إلى منزلي.

- الآن، وتوّا؟ الشارع مليء بالجنود.

سارت المرأة أمامي واتجهت نحو الباب المشقوق الذي كان يعكس خيطاً دقيقاً من النور الأصفر على أرضية الرواق. قبل أن تدخل إلى الغرفة، أدارت صوبي نظرتها نصف المحجوبة بسبب خصلة شعرها، وبدم بارد، يشبه ذاك الذي عرفته عند والدتي، قالت بما يشبه التمتمة:

=المكان الذي سقط فيه ليث بن قيس، المحارب العربي الشهير وأحد قادة الفتح الإسلامي لأفغانستان في عهد الخليفة عثمان. تقول «الأسطورة» أنه كان يحمل سيفاً في كلّ يدّ، وقد استمر في القتال حتى بعد أن قطع رأسه.

ـ انتعل حذاءك.

اختفت في الغرفة. عادت إلى الرواق في الوقت الذي انتعلت فيه الحذاء. بيدٍ، كانت تحمل مصباح النفط، وبالأخرى، كانت تمسك بيد الرجل الشبح الذي رأيته منذ لحظات والذي كان لا يزال دائما في الوضعية ذاتها: الذراعان المعقوفان حول جسده. استطعت أن أتبيّن في هذه اللحظة، وجهه بشكل أفضل. كان شعره شديد البياض، لحيته أيضاً، لكنه كان أبعد من أن يكون شخصاً مسناً. إنه شاب، وبدون شك أكثر شباباً مني.

ـ تعال، اتبعني.

عند سماع رنّة صوتها، انزاحت نظرتي عن شعر هذا الشاب الأبيض، الذي شاخ قبل أوانه ولأتبع مسار حفيف تنورتها حتى آخر الرواق. رفعت المرأة الباب الصغير الذي يفضي إلى خلف المنزل. نزلنا درجات. على السلّم، عالجت باباً أرضياً كان مختفياً خلف سجادة وكومة قش. فتحته وكانت أول من نزل عبره.

نزلت بدون تردد، حتى من دون أن أتساءل ـ أو أسألها ـ لماذا.

نزلت إلى حفرة مربعة. هبط الرجل الشبح بدوره واقترب

مني. أغلقت المرأة الباب الأرضي وسمعنا تراباً وقشاً ينهال فوق رؤوسنا. ربما كنت الوحيد الذي سمع ذلك.

من هو هذا الرجل؟ زوجها؟ مارّ عابر مثلي أنقذته ومنعته من الرحيل؟ هل سأبقى هنا مثله؟ هل سأحتفظ بشعري؟ ماذا تريد منّا هذه المرأة؟

قُرِع باب المنزل. تنفس الرجل الشبح بصعوبة. امتزجت رطوبة المكان ـ الواقع تحت الأرض ـ برائحة الطين التي كانت تفوح من حذائي. علا ضجيج أحذية في باحة المنزل. تنهد الرجل الشبح ببطء. انساب عرق بارد على جبهتي، وصولاً إلى أنفي. بدا لي أن بركة ماء تتجمع تحت ساقيّ. استمر الرجل الشبح في التنهد. ملأ بخار دافئ الحفرة. اجتاحت منخريّ رائحة حازرة ومرّة. كان الرجل الشبح يتبول. مزقت تنهداته الجو.

اختلط كلّ شيء ببعضه البعض: الطين والبول، التنهدات والتنفس، الظلام والألم، الاختناق والتراب.

أنا في القبر.

كان جدّي يقول، وبحسب دام الله سعيد مصطفى، إن أفعال الكافر تتحول إلى ذئاب جائعة، ذئاب عمياء وصمّاء، فتأتي لتعذبه في القبر حتى يوم الدينونة.

أحيانا وفي بعض الحالات المختلفة، تأخذ شكل خنازير قذرة، لتأتي وتعذبه.

نعم أنا كافر، ومن أجل تعذيبي، أرسلوا إليّ ملاكاً أعمى وأصمّ، كي لا يتمكن من رؤيتي أو من سماعي وأنا أبكي، وحتى لا أتوسل إليه.

أين هو كفني إذا، الذي سأكتب عليه أفعالي؟

ـ يا أخي؟

إن فتحت عينيّ ـ وهذا ما أفعله ـ فلن أرى سوى الظلام ـ وها هو هنا ـ والنتانة والبول والقيء والطين والقبر. . . وتنهدات شاب ذي شعر ابيض، الرجل الشبح الأعمى والأصم، والمرأة نفسها التي تقول:

ـ تعال يا أخي! بإمكانك الخروج.

وعليّ من جديد أن أتحرك كي انهض. لكني لا أنجح في ذلك. على المرأة أن ترش وجهي مرّة أخرى. عليّ أن أفتح عينيّ، أن أخرج من هذه الحفرة الضيقة، أن أصعد الدرجات، أن أدخل في هذا الرواق المعتم الطويل، أن أصل إلى هذه الغرفة الصغيرة التي ليست غرفتي، أن أنهار على الأرض.

قالت المرأة:

ـ لقد رحل الجنود يا أخي. . .

وعليّ أن أغمض عينيّ من جديد.

تناهت إلى أسماعي تنهدات آسرة. أفتح عينيّ. لم أر شيئاً أو أحدا. تلمست يدي الأرض: ما من تراب أو طين، بل وجه سجادة خشن. تضاعف صوت الأنين. أغرق صرير باب جاف، تم فتحه، الرواق بنور أصفر، كما غرفتي أيضاً. تنزّه النور ليغادر الغرفة عند فتحة باب آخر. سكت الأنين. بقي الرواق مضاء بشكل ضعيف.

أشعر بالعطش. حلقي يلتهب وصدغاي ينفجران. تصعد إلى خياشيمي عفونة الطين والبول والدم والقيء والنبيذ... يجب أن أجد ماء. أنهض. أترك النور الخفيف الذي يتسلل من شقّ الباب والذي يمزق العتمة في منتصف الرواق، ليقودني. أقترب من الباب. تم وضع المصباح النفطي بالقرب من العتبة. في عمق الغرفة، كانت هناك والدة الطفل الذي ناداني «أبي»، جالسة أرضاً. كانت قد حلّت صداريتها وتُرَضع الرجل الشبح ذا الشعر الأبيض، الذي كان يمتص ثديها مثل طفل رضيع.

أغلق عينيّ وأتنشق عميقاً قبل أن افتحهما مجدداً. كلا، لا أحلم. لا تزال شفتا الرجل الشبح تضغطان على ثدي المرأة الأبيض. أريد أن أتحرك فلا افلح بذلك، وقدماي مسمّرتان بالأرض. لقد غفا الرجل الشبح. سحبت المرأة ثديها بهدوء ووضعت رأس الشاب فوق وسادة.

يجب أن لا تراني. عليّ أن أبتعد لكنني لا أستطيع ذلك. تغلق المرأة صدريتها. كأني شخص مصعوق. تنهض وتتجه إلى الباب. يلفني عرق بارد من رأسي إلى قدميّ. تمسك المرأة بالمصباح وتخرج إلى الرواق. يقع ثقل الليل بأكمله على كتفيّ. تتسمر المرأة أمامي، بصمت. أشعر بشلل تام. اسأل:

ـ أين المراحيض؟

ترفع المرأة خصلة شعرها من على وجهها. لم تنبعث من نظرتها أي علامة تساؤل، أي مفاجأة، أي خفر نسائي. تتجه بي، مع المصباح، إلى باب صغير مفتوح، تضع المصباح على أرضية المرحاض وتعود إلى الرواق:

ـ سآتي بثياب نظيفة ومنشفة.

تخيفني المرآة. أرى فيها شبحا لم يشب شعره بعد. هل هذا أنا.

أرمي ثيابي المتسخة بالطين والدماء والقيء في إحدى الزوايا، أمسك بالمصباح وأخرج من المرحاض. أعود إلى الغرفة التي كنت فيها.

كانت المرأة جالسة على الفراش بالقرب من الباب. لم يلفت انتباهها، الغارق في السجادة، لا النور الذي أضاء الغرفة ولا حضوري. كان رأسها محنيا إلى الأمام، كما أن نصف وجهها لا يزال مغطى بخصلة شعرها. وضعت المصباح بالقرب من يدها، في مكان غير بعيد عن الباب وابتعدت بأقصى ما أستطيعه من هدوء كي لا أشوش صمتها أو خشوعها. اتجهت إلى الفراش الآخر. تحترق شمعة أخرى على جثة الشمعة التي انطفأت. أجلس. يرتعش خيالي على الحائط المقابل كما على جسد المرأة.

تلتهم نظرتي خطوط السجادة السوداء، تسكنها الرغبة في أن تصعد جسد المرأة بطوله. هل لا يزال نهدها عارياً؟

بقينا صامتين، إذ ينتظر كلّ واحد منا أن يبدأ الآخر بالكلام. هل يتوجب عليّ أن أقول شيئا؟ ماذا أقول؟ من أنت؟ هل تعتقدين بأني شخص آخر؟ لمَ لا تتركيني أرحل؟ تشعرني هذه الأسئلة التي لا تزال تتصارع على طريق شفتيّ، بخفقان قلبي، بارتجاف جسدي؟ يجف حلقي.

ما زالت نظرتي أسيرة رسوم السجادة. عليّ أن أقول شيئاً.

ـ يا أختاه، لا أعرف كيف أشكرك على كلّ ما فعلته من أجلي. لكني لم افهم بعد ماذا جرى؟ هذا المساء...

ـ كنّا لا نزال على الشرفة، ابني يحيى وأنا. سمعنا صوت فرامل سيارة عسكرية مثلما سمعنا ضجة وأصوات جنود وشتائم وطلقات نارية. عندما رحلوا، فتحت الباب. كنت غائباً عن الوعي في الحفرة.

غادرت نظرتي المرتجفة رسوم السجادة لتقع على الزهور المرسومة على الفراش حيث تجلس. لم تكن تملك الشجاعة لتصعد إلى نهدها.

ـ نعم، كنت تأخرت. وبالكاد قد حلت ساعة منع التجوال. كنت أركض إلى منزلي... لكن، لقد ضايقتك، عليّ أن أرحل الآن.

وضعت المرأة يدها على إحدى زهور الفراش.

ـ لتمضي الليلة هنا. سنجد غدا حلا. أنت في أمان هنا، لقد فتشوا المنزل، من غير المحتمل أن يعودوا. أعتقد أنهم يبحثون عنك. قالوا إن سارقا يختبئ في شارعنا. لقد فتشوا الحيّ بدقة.

تصعد نظرتي المليئة بالكدر والقلق على طول يدها الموضوعة على الزهرة:

ـ هل قالوا سارقا حقا؟

كانت صدريتها مغلقة.

ـ يجب أن يقولوا شيئاً لإشعارنا بالخوف ولتبرير عملية التفتيش!

كان نصف وجهها مغطى بخيالي والنصف الآخر بخصلة شعرها.

ـ حتى أني لا أعرف لماذا أوقفوني ولـمَ أشبعوني ضرباً. ربما من أجل كلمة السرّ!

أزاحت يدها عن زهرة الفراش المجعلكة، لترفع بها خصلة الشعر من على وجهها ولتضعها خلف أذنها. أما أنا، فأزحت ظلي من على نور الشمعة، لأجعله في المكان الآخر.

ـ لا تملك كلمة سرّ ولا بطاقة الحزب، هذه جريمة بحد ذاتها.

ـ بطاقة هويتي! بطاقتي الجامعية؟

وثبت لأسرع إلى غرفة المرحاض. فتشت جيوب بنطالي وقميصي. لا شيء. لقد أعدمت. عدت إلى الغرفة. لم تتحرك المرأة الهادئة الأعصاب من على الفراش. بقيت واقفا في شقّ الباب والقلق يلتهمني.

ـ عليّ أن أرحل.

ـ بدون أوراق؟

ـ ربما رموا كلّ شيء في الحفرة. لا أعتقد أنهم مزقوا شيئاً برغم كلّ شيء!

ـ أتظن أنها اللحظة المناسبة لكي تلقي نظرة؟ ربما لا تزال الدورية في الشارع.

قلقا، سرت بضع خطوات باتجاه الفراش. ومن جراء الحيرة التي تفترسني، صرخت لنفسي:

ـ يا أماه!

يبدو كأنها لم تسمع.

ـ هل أحضر لك شيئاً للأكل.

تنهض، تمسك بالمصباح وتذهب لتقطع صمت الرواق وعتمته.

مثل الشمعة الموضوعة على حافة النافذة، يذوب جسدي ويسيل على الفراش.

أجدني وحدي، يؤرقني وجه أمي التي تذهب ـ مسمّرة بالقلق ـ إلى عمق الباحة، بعيداً عن أخي وأختي: تريد أن يناما إذ عليهما الذهاب إلى المدرسة صباحا. تروح أمي وتجيء خلف الباب وهي تصلّي. سيفجر نحيبها الرواق. عليّ أن أذهب في الحال، وإلا لن تغمض عينها هذه الليلة.

ـ عليّ أن أرحل!

يمزق صوتي عتمة الغرفة الصامتة. أقف. يتقطع ظلّي الخائف إلى شظايا على الحائط والسقف. تصل والدة يحيى من الرواق حاملة صينية.

ـ عليّ أن أرحل!

ـ كُل شيئاً ما.

تركع المرأة وتصب شاياً. لا تزال حركاتها بالثبات عينه. صوتها ونظرتها أيضاً.

ـ لن تغمض أمي جفنا هذه الليلة.

ـ إن خرجت الآن ووقعت على الدورية، فلن يغمض لها جفن طيلة حياتها.

سمّرتني في مكاني. أمامها، أشعر بعجز كليّ مثل طفل.

عدت لأجلس إلى جانب الصينية، وأنا أرتجف مثل ظلي. انشغلت المرأة بصب الشاي.

ـ يا أختاه، لا أريد أن أزعجك فترة أطول، أخشى ان. . .

تضع قطعة سكر في فنجاني وتمد إليّ قطعة خبز.

ـ لتعلم، ما من سواد أكثر من السواد نفسه، لتطمئن. لا أعتقد أنه يمكن أن يحصل لي أي شيء أسوأ ممّا عشته في هذه السنوات الأخيرة.

تنزلق نظرتها على ظلي المهشم والمرتجف.

ـ سُجن زوجي منذ عام. من ثم قيل لنا إنه أعدم. لم أقل شيئاً ليحيى. لا زال يعتقد أن والده مسافر، في مدينة بعيدة اسمها «بول ـ إيه ـ شارخي»[1].

ـ لماذا ناديني يا أبي؟ هل أشبه والده؟

ـ أبدا. ما من شبه بينكما.

رغبت في أن اقول: لم يناديني هكذا إذا؟ هل نسي وجه والده؟ أليست هناك صورة لوالده في المنزل كلّه؟ ماذا يقصد حين يعلن بدون توقف وبصوت منتصر أنه أخرجني من الحلم؟

---

(١) حرفياً الجسر الدوار. المقصود هنا السجن الرهيب الواقع إلى الشرق من كابول. كان مخيم موت حقيقياً، حيث مورس التعذيب والإعدام، بشكل كبير، تحت حكم جميع الأنظمة الشيوعية بين ١٩٧٨ و١٩٩٢.

أسندت والدة يحيى ظهرها إلى الحائط. أرخت رأسها إلى الوراء وذابت مع ظلّها. رافقت نظرتها يدي وهي تمتد إلى الصينية حيث وضعت عليها قطعة الخبز، لأبقى مسمراً في مكاني.

ـ الشاب الذي كان معك في المخبأ هو أخي. عمره ١٨ سنة فقط. أمضى ثلاثة أسابيع في السجن. أسأل نفسي عما أذاقوه من عذاب كي يفقد عقله. لقد ابيض شعره. لم يعد يتكلم أبداً. يستيقظ في الليل وهو يرتجف ويبكي. إنه كالطفل الرضيع...

تعهد إلى الصمت عناية أن تكمل حديثها وتفسيره وتتبع حركة يدي المرتجفة التي أعادت وضع كأس الشاي على الصينية. يمتلأ نهدها العاري ـ الأكثر براءة من ثدي أمي، في فكري ـ بالدموع.

ـ أخذوه إلى الجيش لمرتين، اعتقدوا أن مرضه ليس سوى حجّة، وبعد كلّ عملية توقيف، تزداد حالته سوءا. لقد قررت أن أخفيه.

أمسكت بخصلة شعرها من على وجهها. احتل الصمت مكانه مجدداً. كأنها تنتظر أن أخرج أسئلتي التي أخفيها، لكنها لم تفعل.

تنهض وتضع على الصينية أسئلتي وخوفي وانفعالاتي. تحملها مع الخبز والفناجين في عتمة الرواق.

عادت أم يحيى لتقول «نم جيداً» ولتتركني وحيداً مع ظلي المرتجف المسكون بهذين الإصبعين، هذه الأصابع التي ـ وفي اللحظات الأعتم ـ تأتي لتقطف قلقي وتحمله مع خصلة شعرها خلف أذنيها.

أسأل نفسي أي غموض يمكن له أن يخفي هذه الحركة التي تلهب نظري بهذا الشكل، التي تقطع أنفاسي وتنجح في أن تطرد شكوكي وقلقي.

تعطي هذه الحركة ليديها نعومة خاصة، أو بالأحرى تجيء لتظهر نعومتها. حين تغطي خصلة شعرها نصف وجهها، تمتلئ عينها اليتيمة بالكآبة؛ تكدرني. لكن ما إن تزيح إصبعها خصلة شعرها لتظهر نظرتها، حتى لا يعد هناك أي أثر لهذه الكآبة.

وحده الله يعرف لمَ قال جدي لوالدي:

ـ عليك أن تحذر من أمرين عند المرأة: شعرها ودموعها.

تمتم بشيء ما وهو يعدّ ثلاث حبات من سبّحته، ليتابع:

ـ شعر المرأة بمثابة قيد ودموعها إعصار غاضب.

ثلاث حبات أخرى من سبّحته مصحوبة بثلاث صلوات. ختم بالقول:

ـ لهذا قيل إنه يجب ولا محالة، تغطية وجه المرأة وشعرها.

هذا ما قاله في اليوم الذي أعلن فيه له والدي بقراره بالزواج مرّة ثانية. لقد بكت أمي قبل أن تعيد وضع قناعها المرعب على وجهها.

كانت جدتي تقول إنّ والدتي ولدت بهذا الشكل الخائف. إنه هذا الوجه الذي أصبح مألوفا عندي. عندما يراها أحد للمرّة الأولى، يظن أنه أثار فيها الرعب. كنت أتساءل ما الذي يضفي على وجهها المليء بالحنان، هذا التعبير الدائم بالرعب. هل هو وجهها ذو العظام الناتئة؟ أهما زاويتا شفتيها الهابطتين؟ عيناها الغائرتان؟ أهو فمها أسير التجعيدتان العميقتان اللتان تشبهان الهلالين؟ حين كانت أمي تضحك، فهي كانت تضحك بين هلالين، وعندما كانت تبكي، فإنها كانت تبكي بين هلالين. في الحقيقة كانت تعيش بين هلالين.

وذات يوم انمحى الهلالان من على وجهها. سقط القناع المرعب، بعد ذلك بأشهر تزوج والدي مرة جديدة. لم يطرح أحد أي سؤال. ومع ذلك، لو قام أحد بذلك، لما تكلف أبي عناء الإجابة.

لم يهتم أبي يوماً بمعرفة لمَ تملك أمي هذا الشكل الخائف. يجب القول إن الأمر لم يكن يعني له شيئاً وإلا كيف استطاع ممارسة الحب مع امرأة ذات هيئة مرتعبة. في أي حال، لم يكن والدي يمارس الحب مع أمي، كان ينام معها، كان يصعد فوقها في العتمة، يغلق عينيه... وينتهي الأمر!

كيف يجب شرح هذا الأمر: منذ اللحظة التي اختفت فيها صورة الخوف من على وجه أمي، بدأ أبي بالبحث عن زوجة جديدة! ربما كان هذا الشكل الخائف الذي يثير فيه الرغبة، وفي اليوم الذي لم تعد فيه أمي مرتعبة وهي تمارس الحب، لم يعد أبي قادراً على بلوغ النشوة الجنسية. اختار امرأة أكثر شباباً، امرأة لا يزال الجنس يثير فيها الخوف.

في اليوم الذي لم يعد فيه الجنس، عند أمي، مرادفا للرعب، كان ـ من المحتمل ـ أول يوم تشعر فيه باللذة. أول وآخر يوم.

لكن قناع الرعب عاد ليأخذ مكانه المعتاد سريعاً على وجهها. بيد أنه هذه المرة، ليس بسبب الخوف الذي يثيره الجنس بل بسبب وحدتها.

في هذا المساء، ستشعر بالوحدة أكثر من أي يوم آخر. لقد ذهبت لتضع وجهها المرتعب خلف الباب. إنها تنتظرني أنا.

يداها المتعبتان، المرفوعتان باتجاه الله في الليل البهيم، تلقيان صلاة الخلاص.

عليّ أن أرحل.

- إلى أين أنت ذاهب؟

عند سماعي الصوت، تكسر جسدي على آخر درجات الشرفة. يجب بالتأكيد أن لا يلتقي نظري بنظرها. وبدون أن تفارق عيناي باب الشارع، أجبت وأنا مليء بالتشوش:

- عليّ أن أعود إلى منزلي.

من جديد، وتحت نظرة هذه المرأة، شعرت بنفسي كطفل صغير مضطرب جداً.

- تريد الرحيل: ارحل! لكن قم بذلك بطريقة لا تجعل الجنود يعرفون معها بأنني خبأتك.

تركت والدتي خلف باب منزلنا. تركت شفتيها الملفوفتين بالرعب تمتمان صلاة الخلاص، لمرات عديدة، بقدر عدد النجوم في السماء.

وكطفل ارتكب خطأ لتوه، عدت إلى الشرفة، ونظرتي، تكنس الأرض. لا أريد أن أرى أصابع المرأة، لا أريد أن أراها وهي تقطف خصلة شعرها من على وجهها وتلفها خلف أذنها!

تسمّرت على عتبة الباب.

ـ أختاه. . .

ـ مهناز. اسمي مهناز. لا أحب فعلاً أن ينادونني «أختاه». وأنت ما اسمك؟

ـ فرهد. . . أريد أن أقول لك إني لا أرغب في تعريض حياتكم في خطر. . .

ـ في رحيلك الآن، فأنت تضعها في خطر أكبر ممّا لو بقيت. سنجد غدا حلا لذلك.

سرت في الرواق. نزعت حذائي من جديد في الغرفة التي كنت فيها.

استمر الليل في استهلاك نفسه فوق فتيل الشمعة.

«إن لم تنهض أنت
إن لم أنهض أنا
إن لم ينهض هو
من سيذهب لنكاح والدة هذه الأمة».

في تحويره شعار الشيوعيين، حكم عنايت على نفسه بالمنفى. لقد خربش عنايت قصيدته هذه على ورقة صغيرة، جعلكها على شكل كرة ورماها باتجاهي. وقعت الكرة الورقية بين قدميّ طالب منتسب للحزب، لم يجد مشقة في فتحها كي يتعرف للحال إلى خط عنايت.

هرب عنايت من الجامعة بدون أن ينتظر نهاية الحصة الدراسية.

في مساء اليوم عينه، ذهبت إلى منزله. قرر صديقي عنايت أن يغادر أفغانستان. ودعنا بعضنا خلال ليلتين بأسرهما. كان وداعاً شاعرياً. أمضينا الليلتين بالشرب. لم نغلق أجفاننا.

رغب عنايت في أن يذهب لرؤية الشمس وهي تشرق فوق كابول للمرّة الأخيرة. في اللحظة التي ينتهي فيها الليل تحت

أحذية الحراس، وحيث تتكسر الأحلام عند نداء الملا، ذهبنا، عنايت وأنا، لنتوه وسط الكروم، فوق هضبة باغ ـ إي ـ بالا ـ، منتظرين أن تظهر الشمس. شعرنا بالعطش فشرب عنايت قطرات الندى من على أوراق الكرمى. لم يكن عنايت شاعراً، بل كانت حياته هي القصيدة.

بعد شروق الشمس، عدنا إلى منزله لنشرب مجدداً. وبما أنه لم يعد هناك أي شيء لنحتسيه ذهبنا إلى دكان المعلّم بحثا عن فتيات باخوس.

لا يزال الليل يلتهم نفسه في فتيل الشمعة. مددت يدي بشكل آلي باتجاه الفتيل. إن لسعني فهذا معناه أنني مستيقظ.

لم أزل غير مصدق ان كلّ ذلك قد يحصل في الواقع. أو ربما كنت أرفض تصديق ذلك؟ أرغب في أن يكون كابوساً لا واقعا.

أحسست بالحريق في إصبعي.

لو أن مهناز فقط، بكل طيبتها وكرمها، تستطيع أن تكون حلماً. أريد أن أفتح عينيّ لأجد غرفتي مجدداً، لأرى الفجر على شفتيّ أمي اللتين من دون هلالين. أمي الجالسة إلى حافة سريرها وهي تتلو صلاة الخلاص، لتباركني في نسيم الصباح الدافئ. أرغب في أن تأخذني بين ذراعيها.

كانت تضمنا بين ذراعيها، فريد وأنا. نعود لنصبح طفلين. يبدأ فريد بالصراخ:

- أبي، أبي!

لمن ينادي فريد يا أبي؟ هل يناديني أنا؟

ـ كلا يا فريد أنا أخوك!

لا يسمع فريد. يستمر في الصراخ. تفك والدتي صدريتها وتخرج ثدييها لتضعهما على شفاهنا. لا تقول شيئاً، يرضع فريد من ثدي أمي، لكنه يلحسه أيضاً. فمه مليء بالدم. أنظر إلى ثديّ أمي. بدلا من الحليب، كان الدم ينساب منه. استمر في رضع الثدي الاخر. لم تكن هناك رائحة دم بل رائحة حليب. لكنه حليب رائب. ألحس الثدي. يصعد الحليب الحامض إلى حلقي. يملأ فمي. يصرخ فريد:

ـ أمي، لقد تقيأ والدي من جديد!

يحرق مذاق القيء الحاد فمي وخياشيمي. أرى يحيى أمامي وهو يركض باتجاه الرواق مناديا والدته.

ـ أمي، إن أبي يتقيأ!

ظهرت مهناز في شق الباب وهي تحمل منشفة بيدها. تقترب وتركع إلى جانبي. تضع المنشفة الرطبة على جبهتي. وبحركة أخيرة تتعدى قواي، استطيع النهوض. تساعدني مهناز على الجلوس ـ يمتلأ القميص الذي ربما كان يخص شقيق مهناز الأبكم أو لزوجها المقتول ـ بالقيء. تمرر مهناز المنشفة على فمي وعنقي. لا أستطيع النظر إليها. أشعر بأن صدرها عار.

أثبت نظري على يديها اللتين تهبطان على طول وجهي حتى عنقي بنعومة لا تصدق.

ـ هل تشعر بتحسن ما؟

ـ أجل. . .

إنهما لطيفان معي بشكل كبير! ماذا يمكن لهما أن يريدا مني؟

يمدّ لي يحيى بكأس ماء ويجلس قبالتي.

ـ أتشعر بتحسن كبير يا أبتاه؟

ـ يحيى اترك السيد فرهد لحاله! اذهب إلى الغرفة الأخرى!

تمسح مهناز بقعة القيء من على السجادة. عليّ أن أساعدها. لست قادراً على ذلك. ينهض الطفل ويخرج من الغرفة. أريد أن أقول شيئاً لكن لساني متراخ. لا تزال عيناي مصوبتان على يديّ مهناز. أسمع خفقان قلبي، إنه الإنهاك، الكلمات المكبوتة. تنهض مهناز واقفة.

ـ لقد انتهى منع التجوال. سأذهب لشراء أدوية.

ـ لا تزعجي نفسك بسبب هذا الأمر. أرجوك.

تغادر مهناز الغرفة.

عند النافذة، ينتظر النهار، بفارغ الصبر، أن نزيح الستائر كي يتسلل إلى قلب الغرفة.

لا أريد إزاحتها.

عبر شق الستائر يتقاطر النهار على مسند النافذة، يسقط على الفراش حيث أجلس، ليرحل بعيداً كي يتزاوج الخطوط السوداء فوق سطح السجادة الحمراء. خرجت مهناز لشراء خبز من أجل الفطور وأدوية من أجلي. جاء يحيى ليجلس إلى زاوية السجادة، الأخرى، قرب الباب. صمتنا. تبتسم لي نظرة الطفل البريئة. لم أر على وجهه أي تشابه معي، أو بالأحرى، مع هذا الأب الذي عليّ أن أشبهه من حيث الظاهر. ومع ذلك، وبما أن الطفل لا يشبه أمه، فإنه يجب أن يكون شبيه والده. لكن كيف له أن يظنه أنا؟

تسير نظرتي عبثا طوال جدران الغرفة البيضاء والعارية، بحثا عن صورة فوتوغرافية لوالد الصبي. على مسند النافذة، غير البعيد من هنا، حيث تتراقص جثة الشمعة، ألحظ كتابين كبيرين ذي غلافين جلديين مخططين بالذهب. اقترب منهما. «وجوه خسروف وشيرين السبعة»[1]. أضعهما مكانهما.

لمَ يناديني يحيى يا أبي؟ لم يبدو على مهناز أنها تريد إجابتي على ذلك. من يعرف ما إذا كان الصبي قد عرف والده حقا؟

---

(١) ملحمة الشاعر الفارسي الشهير نظامي (١١٤١ ـ ١٢٠٩) وهي تروي قصة غرام الملك الساساني خوسروف برفيز والملكة الجميلة، المعتدة بنفسها، شيرين. الكتاب إحدى روائع الأدب الفارسي. الوجوه السبعة، (أو «هافت بايكار») سرد وجداني وروحاني حيث يتعلم الملك إبراهيم الحكمة عبر سبع حكايات تروى له خلال أسبوع، من قبل زوجاته السبع.

أشير إلى الصبي بأن يقترب. يسرع ويجلس قبالتي، في دائرة أشعة الشمس التي تنبثق عبر فتحة الستائر، لتسقط على السجادة. يتفرّس بي. ما من تساؤل في نظرته. ومع ذلك، من الضروري أن يكون رأس طفل مثل يحيى مليئاً بالأسئلة، وبخاصة تجاه ذاك الذي يناديه «أبي»: أب مختفي، غائب منذ فترة طويلة، مغطى بالرصاص والجروح! مساء أمس، لم يقل إلاّ شيئاً واحدا: «أين كنت يا أبي». وذهب من دون أن يسمع الجواب. كان سؤالا من دون تساؤل. لم يسأل شيئاً مع ذلك. كما لو أن وجودي ـ أو وجود الأب ـ أهم من أي سؤال. عليه أن يعرف بأنني لست والده، بأني سأرحل مجدداً، إني...

ـ يحيى يا صغيري، أنا...

حرّك الطفل عينه اليمنى من تحت أشعة الشمس؛ لا زالت ابتسامته الناعمة عند طرف شفتيه. لا أشعر أنه ينتظر بقية كلماتي، بل على العكس، تجعلني نظرته صامتا، تحيلني إلى خطاب آخر: «أرجوك، دعني في أوهامي! أعرف بأنك لست والدي لكنك تستطيع الاستمرار في تمثيل ذلك قليلاً. أرأيت، أنت ترغب في أن يكون كلّ شيء بمثابة حلم، حسنا، وأنا أريد أن أستمر بالاعتقاد بأن أبي قد عاد. لا تحطم حلمي».

ـ أعرف يا أبي من أين تعود!

ما صرح به يطرد الأحاديث الصامتة من نظرته.

ـ آه، من أين؟

تلوّى كي يقترب مني.

ـ إنك تعود من مدينة بول ـ إيه ـ شاخي.

ـ ما هي هذه المدينة؟

تلعب إصبعه بأشعة الشمس وبأزهار الفراش.

ـ إنها مدينة كبيرة، مدينة مبنية على جسر مهيب يدور ليل نهار.

ـ هل تذكر متى رحلت؟

ـ لا، لأنني كنت نائما. قالت لي أمي بأنه لم يعد هناك نفط في المصباح فذهبت لشرائه. ضعت هناك ولم يكن يعرفك أحد. أضف إلى ذلك، كنت نسيت بطاقة هويتك في المنزل. لذلك بقيت سجينا في المدينة. لم يكن الجسر يتوقف أبدا، كان يدور ويدور وحين سألت عمي أنور متى يمكن لك أن تعود من بول ـ إيه ـ شارخي، أجابني: «في الحلم».

توقف الطفل عن اللعب بالشمس وبزهور الفراش.

ـ كانت أمي تبكي كثيراً. اعتقدن أنك لن تعود أبدا. ومع ذلك، كنت تعود من أحلامي مثلما قال لي العم أنور. لكنك في كلّ مرّة، كنت ترحل حين استيقظ بالضبط. لذلك أقسمت لأمي، بأنك حين تعود ذات ليلة في أحلامي، سأمسك بك وأمنعك من الرحيل مجدداً.

لقد أخرجني الطفل من حلمه. أنا مخلوق حُلُمي. أب خيالي. زوج متخيل. ما الفائدة إذا بالنضال كي أعود إلى الحياة؟

أترك يحيى إلى أحلام يقظته الصامتة، إلى مدينته المبنية فوق جسر مهيب يدور ليل نهار. أغلق عينيّ على أمل أن أتسرّب إلى أحلام شخص آخر، إلى أحلام أمّه المعذبة.

لم يغمض لأمي جفن طيلة الليل. حتى أنها نسيت صلاة الفجر. بما أن منع التجول قد انتهى الآن، تخرج وتبقى لفترة في الشارع. لا شيء، لا أحد، حتى ولا خيال ابنها. تعود إلى المنزل. إلى أين تذهب؟ ستذهب حتما إلى منزل والديّ عنايت حيث لن تجدني هناك. وبعد ذلك؟ إلى أي سجن في الحيّ عليها أن تتوجه؟ هل تذهب إل «ك. ج. سيدارات»[(١)] مباشرة؟

- إيه، أنت ايتها الأم، قفي بالصف مثل الجميع!

تمرّ أمام مئات الأمهات كي تنتظر في الصف.

بسببي أنا، ستفرد وجهها الأحب وهي تتكلم مع الجندي. ستناديه «يا أخي».

- أرجوك، يا أخي، ابني فرهد، ابن مرداد، لم يعد ليلة الأمس إلى المنزل...

- إنه ليس هنا. لقد هرب مثل كلّ الآخرين!

- لقد هرب، ستردد ذلك لعدة مرّات بين هلالي وجهها. إلى أين رحل؟ إلى أين هرب؟ لمَ لم يقل أي شيء؟

---

(١) مكان محصن بشكل حقيقي في قلب كابول، كان يضم منزل رئيس الوزراء، ومجلس الوزراء وسجن. تحت الحكم الشيوعي، كان يتم التحقيق مع السجناء قبل أن يرسلوا إلى «بول - إيه - شارخي»، هذا إذا لم يختفوا قبل وصولهم إلى هناك.

كيف لي أن أرحل بدون أمي، بدون فريد وبرفانا؟

لم تستطع أمي أن تنسى كيف لعنت الأرض بأسرها وجبن أبي، حين رحل تاركاً إيّاها وحيدة مع ثلاثة أطفال.

ـ لا، لم يهرب! لكنه أين اختفى؟ هل أرسلوه إلى الجندية أم إلى السجن؟

وضعت يدها الناتئة العظام على فمها كي تخنق صرختها. ستجلس في زاوية تحت نظرات تعاطف الأمهات الأخرى الثقيلة.

عليّ أن أرحل. أنهض. لا تغادرني عينا يحيى. أسير بضع خطوات باتجاه الرواق.

ـ ستعود أمي بعد قليل يا أبي.

بالضبط. عليّ أن أرحل قبل عودة مهناز. لا أريد أن يشلّ ثقل نظرتها إصراري؟ أين أحذيتي؟ لا أجدها في الرواق. هل خبأتها؟ أعود إلى الغرفة. لم يتحرك يحيى قيد أنملة ليستمرّ في الابتسام من جراء رواحي ومجيئي المحموم.

ـ أين أحذيتي؟

نهض الطفل بصمت. ببطء وبنظرة تتوسل أن أبقى، مرّ من أمامي، إلى الرواق ومن ثم إلى الشرفة. عاد بها.

ـ لقد غسلتها أمي.

وضع الحذاء أمام قدمي، عاد ليجلس فوق السجادة بالقرب من الباب ليتأمل قدميّ الحافيتين اللتين تترددان بانتعال الحذاء. إنها رطبة. لا يهم ذلك. أمي تنتظرني.

سأتجنب حتى أن توديع يحيى. تشلّني نظرته بدورها. أتجه صوب الباب المفضي إلى الشارع. يُفتح. إنها مهناز.

ـ إلى أين أنت راحل؟

أغلقت الباب خلفها بعجل. اجتاحت رائحة الخبز الرواق.

ـ عليّ أن أرحل.

ـ هيّا اذهب!

فتحت الباب فتحة صغيرة، كي تدعني فقط، أشاهد الجنديين اللذين يسحقان بأحذيتهما كلّ رغبة في الخروج. تراجعت. أغلقت مهناز الباب. عدنا إلى الرواق.

ـ كنت أظن أنني أنقذت شاباً عادياً، شخصاً هارباً. بصراحة، من أنت؟

ـ أقسم لك يا مهناز، أنا شخص عادي.

ـ لماذا يبحثون عنك إذا منذ ليلة البارحة؟

ـ أسأل نفسي السؤال عينه. أمضيت الليل وأنا أفكر بما فعلته في هذه الأيام الأخيرة. لم أجد شيئاً. لا أنتمي إلى أي شبكة، لا أناضل لا من أجل المقاومة ولا من أجل الثورة... أمضيت جلّ وقتي مع صديق يستعد لمغادرة كابول. بعد أن تركته، قفلت راجعا إلى منزلي، لكن وبما أن الوقت كان متأخراً، أوقفتني الدورية. حتى مع هذا الأمر، لم يحدث أي شيء يستحق الذكر... ربما الشيء الوحيد، هو كلامي مع أحد الضباط الصغار الحقراء وقد ناديته «أيها الكومندان»، وظنّ أني أسخر منه.

أسير بالقرب من مهناز. أريد أن أختلس النظر إليها.

اختفى شكها أو ثقتها تحت خصلة شعرها. صمتٌ.

وصلنا إلى الرواق. ذهبت مهناز ويحيى إلى المطبخ. عدت إلى الغرفة حيث كنت. خلعت حذائي الرطب وذهبت للجلوس على الفراش تحت النافذة.

ممّ أخاف؟ لماذا أخضع إلى هذه المرأة؟ هل نظرتها أثقل من قلق أمي؟ لا! إذا ماذا أنتظر كي أرحل؟ أرحل.

أنهض من على الفراش. بدأ جسدي بالخفقان.

لا شيء لألوم نفسي عليه. سأذهب إلى اللجنة المركزية في الحيّ لأروي لهم كلّ ما جرى لي ليلة البارحة. سأقول لهم إن ثمة خطأ قد حدث، لكن لم تكن غايتي أن أسخر من الضابط. فقط، كنت شربت أكثر قليلاً من المعتاد، كنت مثاراً قليلاً. إن كنت قد تهجمت على أحد فأنا أطلب السماح وسأعود إلى منزلي.

في الرواق، أنتعل حذائي مجدداً. يخفق قلبي أكثر فأكثر.

تصل من المطبخ حاملة معها صينية ليعبق الرواق برائحة الفطور.

ـ لمَ لا تبقى في الغرفة؟

تحت ثقل نظرتها، يسقط إصراري إلى عمق حذائي الرطب. صعقت. لماذا أشعر بأني غير قادر على أن أقول لها برغبتي في الرحيل؟ لِمَ لا تفكر بأنهم إذا وجدوني هنا فسأضيع إلى الأبد. وهي! هل تظن بأنهم لن يطلبوا منها تقريراً عن وجودي هنا؟ لنرى الأمر بشكل أوضح، أنت أرملة، كان زوجك سجيناً

سياسياً، لسنا على أي درجة من القربى. أي نوع من العلاقة يستطيع المرء إقامتها مع أرملة غريبة عنه بشكل كامل؟ وعائلتك؟ ماذا لو عرفت شيئاً. كيف ستعلّلين وجود هذا الشاب، المحرّم عليك، تحت سقف منزلك؟

ابتعدت مهناز، تاركة إياي في دوامة أسئلتي المجهضة. بعد أن وضعت الصينية قرب الفراش بالقرب من النافذة، عادت إلى الرواق واختفت في غرفة أخيها. عدت بدوري إلى مكاني على فراش الغرفة. على الصينية، بالقرب من الفنجان، وضعت مهناز حبوباً ضد الغثيان.

أجل، أشعر بالغثيان.

ليس السُكر ولا الانزعاج من الوجود: إنه الرعب الذي يحمل قلبي.

ذهبت إلى مكتبة الجامعة كي أستعير كتاب «مقالات» شمس. قال لي الموظف هناك بأن أحدهم يقرأه في هذه اللحظة بالذات. أخذت كتاباً آخر، وبعد عملية بحث لم تدم طويلا، جلست إلى طاولة كان في طرفها الآخر، شاب يضع نظارتين غامقتين، يقرأ. كان قد أخفى وجهه بين صفحات الكتاب كما لو أنه يريد ابتلاع الكلمات. يقرأ في الكتاب الذي كنت أبحث عنه. اقتربت منه، مظهراً له وجودي من خلال نحنحة صغيرة بالكاد كنت أسمعها، وقلت له بما يشبه الهمهمة.

ـ أعذرني، هل بإمكانك أن تخطرني عندما تنهي قراءتك؟

ارتفعت نظرته الحيّة، المتجذرة في الكلمات، من الكتاب كي تقع عليّ. هزّ برأسه قبل أن يخفيه من جديد في الكتاب الضخم.

بعد فترة، وقف، وسجل شيئاً بقلم رصاص على هامش الكتاب وأشار إليّ بأنه انتهى. ذهبنا معا إلى عند الموظف. استعرت الكتاب وعدت للجلوس إلى الطاولة عينها. بدأت بالبحث عن الصفحة التي خط عليها.

على صفحة، كان قد سطّر تحت مقطع لشمس: «هل نستطيع، نحن الذين غير جديرين بالكلمة، أن نكون جديرين بالاستماع فقط! كلّ قول هو أمر ضروري والاستماع أيضاً. لكني

أرى الأختام على الأذنين، على القلوب، على الأفواه، أرى الأختام» وعلى الهامش أضاف بقلمه «=الرعب».

في ذلك اليوم، وفي الكافيتيريا الجامعية، عدت ووجدت قارئ «مقالات» شمس. شربنا الشاي وثرثرنا. يدعى عنايت.

هل يمكن تسمية هذه اللحظات باسم آخر غير الرعب؟ إنه الرعب الذي يجعلنا نشك بوجودنا، إنه الرعب الذي يدفعنا إلى أن نلجأ إلى عوالم متخيّلة، إلى الإيمان بالجان، بالمرأة الأثيرية، بالحياة بعد الموت. . .

منذ زمن بعيد غسلت روحي من كلّ هذا السراب. لم تكن الجان شيئاً أكثر من هؤلاء الأطفال الذي يؤدون دوراً في مسرح جدي المتخيل، فالحياة بعد الموت ليست سوى إيمان تخيّله الإنسان كي يتحمل خوفه من العدم.

لكن أعقابِ الكلاشينكوف أخرجت من النسيان «جان» جدّي الهامدة وها هي قد عادت إلى خشبة وجودي. في الحقيقة، أفضل أن أؤمن بهذا المسرح بدلا من واقع الرعب!

أجل، أضيف رحلة الروح السماوية إلى وجود الجان، إلى موتي، لكني لا أريد أن أؤمن بما يحدث لي.

ـ هل لديك هاتف يا سيد فرهد؟

ابتلعت قطعة الخبز مع جرعة شاي وبدون أن أرفع رأسي عن جسد مهناز التي كانت واقفة في شقّ الباب، أجبت:

ـ لا، لكن

ـ في هذه الحالة، أعطني عنوان منزلك!

نهضت واتجهت صوبها.

ـ أرجوك يا مهناز، حقا، لا أريد أن...

ـ طلبت منك أن تدلني أين يقع منزلك.

رغما عني، أشرت لها بطريق البيت.

ـ لن أتغيب طويلا.

رحلت. بقيت مسمراً مكاني. توقفت مهناز أمام باب الرواق ونادت إلى يحيى. خرج الطفل من غرفة والدته:

ـ لا تفتح إلى أي شخص يا يحي!

خرجت من الرواق، قامت ببضع خطوات على الشرفة وعادت إلى المنزل. اقتربت بدوري من المدخل.

ـ هل لديك رسالة تريد إيصالها إلى والدتك؟

ـ كلا... لكن...

كنت غير قادر على المتابعة. رغبت في الإلحاح، في أن أقول لها بأنني أنا من سيذهب، بأن...

عليك أن تكون قد غادرت قبل الظهيرة. حتى عودتي، أطلب منك عدم الخروج من المنزل. لا أريد أن يشاهدك أحد هنا.

عادت لتتحرك. بقيت مسمّراً خلف نافذة الرواق. اجتازت عتبة الباب لتخرج إلى الطريق. كان يحيى ينتظرني على عتبة الغرفة.

ربما وقعت فعلاً في مدينة تدور بدون توقف فوق جسر مهيب.

ربما وصلت مهناز إلى شارعنا. تتوقف عند فرن الخبز كي تسأل:

ـ هل يمكنك أن تدلني إلى بيت فرهد، ابن الأستاذ حميرة؟

يخرج سفدار، الملقب بالذراع الطويلة، رأسه من قلب الفرن. يمسح جبهته المغطاة بالعرق، يقول:

ـ أول مفرق إلى اليسار، البيت الثاني ذو الباب الذي لم يُطلَ بعد.

ما إن سمع اسمي، حتى توقف شقيق سفدار عن العجن، كما يفعل في كلّ مرة يراني فيها، ليصدح صوته في عمق الفرن:

ـ لم نعد يُسمع معول فرهد على جبل بيسوتون هذا المساء! في أحلام شيرين رحل فرهد هذا المساء(١).

تقف مهناز أمام باب منزلنا. تضغط زر الجرس من دون تردد. لكنها لم تسمع صوته. نسيت أن ما من تيار كهربائي في

---

(١) كدليل على حبه لشيرين، كان على فرهد أن يحفر طريقاً عبر جبل بيسيتون الشاهق. عمل فرهد ليل نهار ليكلل تعبه بنجاح. إلا أن الملك خسروف، المغرم بشيرين، كان يشعر بالقلق والغيرة، لذلك أعطى أوامره بإعلان وفاة شيرين في أرجاء المملكة. عند سماعه الخبر، رمى فرهد نفسه من أعلى الجبل. (على ما جاء في ملحمة نظامي).

كابول منذ بعض الوقت. بعد هنيهة، تشد الحبل لنسمع صوت بارفان ـ أو ربما صوت فريد ـ من خلف الباب:

ـ من الطارق؟

ما على مهناز أن تقوله؟

ـ لقد أرسلني فرهد.

بعد فترة من الصمت التي أعقبها التردد، تفتح بارفانا ـ أو فريد ـ الباب، نصف فتحة. يتفرسان وجه مهناز بنظرة مستغربة.

يرنّ صوت أمي المتعب والمحبط في الباحة:

ـ من؟

تغلق بارفانا الباب ـ أو فريد. كلا. لمَ عليهما أن يغلقاه؟ ما زالا ينظران إلى مهناز بهذه النظرة المستغربة فيجيبان والدتي:

ـ أحدهم قد جاء من قبل فرهد.

تركض أمي باتجاه الباب. وإن لم تترنح فوق الساقية، فستكون حتما، المرّة الأولى، التي لا تلعنني فيها لأني لم أردمها بعد! يظهر وجهها الذي بدله الذعر من شقّ الباب. لم تفتحه حالا. بدأت بتفحص مهناز من رأسها إلى قدميها. لم تتساءل بعد: «أي مكروه أصابه؟»

ـ أدعى مهناز، جئت من قبل فرهد.

من هي مهناز هذه؟ لماذا لم أحدثها عنها أبدا؟ قاست طول مهناز. ليست صغيرة القامة. مبدئيا، يدل هذا على أنها ليست بكاذبة. بل على العكس، انها مستقيمة ومصممة. تفتح أمي الباب على وسعه وتدعو مهناز إلى الدخول إلى الباحة. قبل أن تغلق الباب، كنست نظرتها القلقة الشارع من أقصاه إلى أقصاه. تغلق الباب، وتتفرس بعينيها اللتين يلفهما النعاس، عينيّ مهناز. تقرأ مهناز الخوف في نظرتها المذعورة. تطمئنها بقولها لها إني سليم ومعافى وبأنني أختبئ في منزلها. لماذا عند هذه المرأة بالذات؟ ما العلاقة التي تجمع بيننا؟ ترفع مهناز خصلة شعرها من على وجهها، تلفها خلف أذنها وتبدأ برواية سير أحداث الليلة الماضية.

تضع والدتي يديها الناتئتي العظام على هلالي وجهها. ما الذي يجب أن تقوم به. أي باب يجب أن تدق؟ عليها أن تذهب حالا إلى نسيبها الذي أصبح ضابطاً نافذاً؟

كلا، هذا أمر لن يحدث أبدا! كيف بإمكانها أن تذهب لطلب المساعدة من الرجل الذي كان حبها الأول، بينما تزوجت من رجل آخر! لم ينس نسيبها مطلقا غيرة والدي تجاهه. في كلّ مرّة كان والدي يشاهده في بذته اللامعة، حتى يبدأ دمه بالغليان من

الغضب، ليصرخ «انكح أم وأخت تاراكي وحافظ الله أمين»، وهذا ما كان يسبب بالطبع نقاشاً سياسياً يدفع بعاشق والدتي إلى الغضب والرحيل. كان والدي يحتفي بانتصاره بصخب. وعندما تزوج والدي من امرأة أخرى وهرب معها إلى باكستان، جاء نسيب والدتي إلى منزلنا حاملا معه يديه وفمه ونظرته المليئة بالشبق. بصقت أمي في وجهه وطردته خارجا.

ما الذي ستقوم به والدتي؟

ترافق مهناز إلى «المحميخانا»[1] لتتركها هناك وحيدة للحظات، لكي تذهب وترتدي ثيابها كي تغادر المنزل.

ستعود برفقة مهناز لتخرجني من هنا.

ـ أنظر يا أبي، أرسم هذا من أجلك.

تنزه يد يحيى قلما على ورقة سوداء.

ـ ما الذي ترسمه؟

ـ فراشة ليل.

---

(١) الغرفة المخصصة للأفراح والاحتفالات، الموجودة في غالبية المنازل في أفغانستان.

- أين هي؟

- لا نشاهدها بسبب الظلام.

يقرع أحدهم على الباب. إنها مهناز بالتأكيد برفقة والدتي. ليست مهناز أبدا؟. وإلا لمَ تدق الباب؟

يرفع يحيى رأسه من أعماق ليله المليء بالفراشات. تزداد عدد الضربات. من الطارق يا ترى؟ الدورية؟ تملأ حمحمات خال يحيى الرواق. يترك يحيى فراشته اللا مرئية في عمق الليل ويتجه إلى الرواق. ألحق به. تزداد الضربات أكثر. يتسمر خال يحيى في وسط الغرفة، واضعا ذراعيه المعكوفتين حول جسده الأشبه بهيكل عظمي. تصبح حمحماته أكثف. هل ينبغي علينا أن نعود إلى الحفرة؟ أمسك بيد الخال. إنها ترتجف. أرتجف بدوري أيضاً. يستمر طنين الضربات في الصدوح داخل الرواق. تصل إلى آخر الرواق. لا يزال الخال يحمحم.

ـ لا تخف، أيها الخال محب، ليس هناك أي شيء!

لم يشعر الخال محب بأي نوع من الاطمئنان. يمسك يحيى بيده الثانية ويقول له:

ـ خالي محب، إن والدي معنا، لا تخشى شيئا!

يستمر محب في حمحمته. أفلت يده. لا يزال الباب يقرع.

ـ خالي محب، إنها والدتي، لقد نسيت المفاتيح. سأفتح لها.

صمت محب، لكن نظرته الزجاجية لا تزال تائهة في الأثير.

أعاده يحيى إلى الغرفة وأجلسه على الفراش. تركناه وحده وعدنا إلى الرواق.

توقفت الضربات. لقد ذهب ذلك الشخص، أيّا من كان.

ـ ربما كانت جدتي...

كان على أهبة أن يتجه إلى الباب.

ـ لا يا يحيى! لقد قالت والدتك يجب عدم فتح الباب لأي من كان!

ـ حتى لجدتي؟

ـ ربما ليست هي.

عاد يحيى إلى الغرفة شاعراً بالتشوش. أما أنا فعدت إلى مكاني، في الغرفة.

لا تزال الفراشة لا مرئية على الورقة ذات اللون الليلي. وجدت في مقلمة يحيى طبشورة بيضاء فرسمت فراشة.

لمَ علينا أن نرى الفراشة مهما كلّف الثمن؟

أستعيد الفراشة على اللوحة الليلية.

موقف الجامعة. نزلت من الباص وعند المدخل الرئيسي وجدت عنايت الذي كان ينتظرني. دعاني إلى شرب كأس. ذهبنا إلى قبر سعيد جمال الدين[1]. بعض العشاق يختبئون بين أوراق الشجر. جلسنا عند حافة القبر، شربنا النبيذ وتسامرنا.

بعد فترة قصيرة، جاءت شقيقة عنايت، دامعة العينين، لتعلن له نبأ انتحار شقيقه في السجن. هشّم عنايت زجاجة النبيذ فوق قبر سعيد جمال الدين وعاد إلى منزله. سرعان ما عدت وأخذت طريق الجامعة.

قبل يومين من الاحتفال بذكرى الثورة، صدر أمر إلى جميع سكان كابول بطلاء أبواب منازلهم باللون الأحمر أو برفع راية حمراء. يومها ذهب شقيق عنايت ورفاقه إلى مسلخ نخاس ليطلوا رايات بيضاء بدماء الخراف، ليبيعوها لجيرانهم. يوم الاحتفال تحول الأحمر القاني إلى اللون الأسود، فتم إيقافهم جميعاً.

تسلّلت إلى مدرج الجامعة. على اللوح الكبير الأسود، علقت راية حمراء طويلة كتب عليها بالأبيض الشعار الشهير التالي:

(١) ولد في أفغانستان العام ١٨٣٧، وكان أحد رواد الحركة المعادية للاستعمار والطغيان من أجل نهضة جديدة في الشرق. كان يرى في وحدة البلاد الإسلامية الحل الوحيد للخروج من حكم الاستعمار البريطاني.

«إن لم أنهض أنا

إن لم تنهض أنت

إن لم ينهض هو

من سيرفع إذا مشعل الأمل في هذه الظلمات؟»

لو لم ينتحر شقيق عنايت لربما كان يشبه اليوم خال يحيى: رجل بدون شباب، روح غائبة، جسد ضامر بين هلالين. لا أريد أن أحيا ما عاشه! لا! لا أريد أن تعصر أمي ثديها على شفتيّ الجافتين كي أرضع دمها. لا أريد أن تذهب كلّ نهار جمعة لتذرف الدموع، مثل والدة يحيى، على قبر من دون جثمان... أريد أن أعيش!

- لقد عادت أمي!

اتجه يحيى نحو الرواق. الباب الذي فتح نشر في الرواق عطر مهناز ووالدتي. سارعت بدوري إلى الرواق. دخلت امرأة عجوز سارعت بدوري إلى الرواق. دخلت امرأة عجوز إلى الرواق خلف مهناز. ليست أمي. لم تغلق مهناز الباب؛ لم تبتعد عنه أيضاً كما لو أنها تريد أن تتخلص من هذه العجوز بأسرع وقت ممكن.

- إنها جدتي!

كان يحيى على أهبة الاستعداد ليلحق بها في الرواق، لكني أوقفته.

- يجب أن لا تراني جدتك يا يحيى!

حدقت بي عيناه المليئتان بالتساؤل. لكن صمتي أنهى سؤاله، ليحتفظ به في رأسه الصغير.

ـ ذات يوم، قالت جدتي بأنك مت في بول ـ إي ـ شارخي. . . لو رأت أنك لا تزال على قيد الحياة، فلن تقول ذلك مجدداً.

ـ كلا يا يحيى، لست. . .

كلا لا أستطيع أن أقول له ذلك.

ـ كانت تسخر مني، حين كنت أقول لها بأنك تأتي لتراني في الحلم وبأنني ذات يوم سأمسك بك، حتى أنها وبختني على ذلك. . . لو رأتك. . .

ـ سأقول لها ذلك بنفسي. إذهب الآن إلى قرب خالك.

عاد الطفل رغما عنه إلى غرفة محب. وصلت العجوز إلى مستوى الشرفة تقريباً. عدت إلى الغرفة على أطراف أصابعي. جاءني صوت العجوز حيث أنا، عبر النافذة.

ـ افعلي كما تشائين، لكني سآخذ يحيى معي. لن أترك حفيدي عند مجنونة مثلك!

ألقي نظرة على الباحة عبر فتحة الستارة. لم تتحرك مهناز من مكانها، لا تزال واقفة بالقرب من الباب المفتوح. تشنج وجهها وتكدرت نظرتها. لم أسمع كلماتها لكني كنت أتخيلها من غير صعوبة. كانت تتهجاها ببطء، كما لو أنها تدرس حباً. جلست

حماتها على درجات السلم ليلعلع صوتها الغاضب في الباحة مجدداً.

ـ. . . سيجعلك أنور تفهمين بأن عائلتنا لم تتخلّ عن شرفها بعد!

تمتمت مهناز بشيء ما وارتفعت سبابتها باتجاه الباب المفتوح. بدون أن تتفوه بشيء، وبغضب صاعق، لمت حماتها عظامها، سوّت شالها الأبيض واتجهت إلى الباب.

ارتجف صوتها في الحديقة الجافة التي كانت حديقة ابنها.

ـ لا تتراجعي أمام أي شيء! تطردينني من منزل ابني! الندم. . .

تاه شكلها المحدودب وكلماتها في الشارع. أغلقت مهناز الباب بدون تردد وعادت إلى المنزل. أسرعت إلى الرواق. يحيى أيضاً.

فتح الطفل باب الرواق ليستقبل أمه. كما يحيى، شعرت برغبة في أن ألقي بنفسي بين ذراعيها اللتين تفوح منهما رائحة والدتي. خفق قلبي. ارتجفت يداي. تمتم لساني:

ـ صباح الخير!

خلعت مهناز حذاءها الذي وطأ سجادتنا في «المحمنخانا» لم

ترفع خصلة شعرها من على وجهها ولتغطي نظرتها اليتيمة، بحنان، رأس الفتى الصغير الذي كان ضرب الأرض بقدميه.

لمَ تتجنب النظر إليّ؟

ـ كنت في منزلكم. الجميع بخير. التقيت والدتك وأخبرتها بكل شيء. لحسن الحظ أنك لم تذهب إلى هناك. هذا الصباح، ساعة الصلاة، فتشوا منزلكم. بحثوا عن مناشير. يقولون إنك وزعت وصديقك بعض المناشير مساء أمس.

ـ كذب. لا تصدقينهم...

ـ أعرف هذا جيداً.

ـ كيف حال أمي؟

ـ الجميع بخير. بالتأكيد كانوا قلقين.

ـ لمَ لمْ تأتي والدتي معك؟

ـ كانت تريد ذلك لكنني أنا من منعها...

لماذا؟ قلت في داخلي. أرسلت مهناز يحيى إلى غرفته. أجابت عن أفكاري:

ـ ربما كان منزلكم مراقباً. ثمة خطر في مجيئها. إنها تبحث حالياً عن حلّ لإخراجك من كابول بأقصى سرعة. ستأتي بعد الظهر. لقد أعطيتها العنوان.

لا زالت نظرتها، التي تحجبها بخصلة شعرها، تهرب مني.

هل تخفي عليّ أمراً ما؟

تذهب؛ تهرب من ثقل نظرتي كي تختلي بنفسها ِفي وحدة غرفتها.

سرعان ما فرغ الرواق من عطر والدتي.

أن لا أكون، أن لا أكون هنا.

لو لم أكن هنا، لكانت مهناز قد بكت؛ لتركت حزنها ينفجر. لكنها ابتلعت دموعها وغضبها. لقد عقدت عقدة في أعماق حلقها وذهبت لتختلي بنفسها.

إنها كوالدتي التي لم أرها تبكي سوى مرة واحدة. المرّة الأولى والأخيرة. كان ذلك حين قرر والدي أن يتزوج مرة ثانية؛ ذلك اليوم، ذهبت إلى عند أخيها الذي كان قريباً من والدي. بدأ خالي بالضحك وأعطى الحق لوالدي. صرخت أمي وانتحبت. حينذاك أعطاها جدي طلسماً صغيراً، حضّره، كما قال، دام الله سعيد مصطفى. بدءا من ذلك اليوم، وما ان تشعر بأنها ستثور من الغضب، حتى تعضّ عليه بين أسنانها بكل قواها. وبما أنها أقفلت هلالي وجهها بذلك، فإن الغضب الذي في فمها يتضاءل ليصبح سكوتا. يتلاشى الغضب من نظرتها لتنسحب إلى المطبخ أو إلى المرحاض كي تهتم بتنظيف شيء ما. يحدث لها أحيانا أن تعيد غسل الشراشف أو الأواني النظيفة. بعد ذلك، تغسل يديها بعناية ومن ثم جسدها لتصلي صلاة قصيرة.

لم أفهم مطلقا ما الذي كانت تريد إقصاءه من جسدها ومن وجودها: غضبها أم حقدها؟ كبريائها أم ذلّها؟

كانت أمي تقول إن كلّ مياه الكوكب قد انبجست من عينيها!

ـ أبي، كُل قليلاً من العنب!

جاء يحيى ليركع بالقرب مني بصمت. كان يحمل عنقود عنب. رفعت جسدي من على الفراش وجلست:

ـ أين هي أمك؟

ـ في المطبخ.

أمسكت بحبة عنب ورفعتها إلى فمي. لا زال يحيى ممسكاً بالعنقود أمامي.

هل أخبرت مهناز حماتها شيئاً بخصوصي حتى انفعلت بغضب إلى هذه الدرجة لتتكلم عن العار؟

أنهض.

الشرف، أي كلمة كريهة هي هذه الكلمة.

أريد أن أذهب لأرى مهناز. هل بسببي رضيت بأن تذل بهذا الشكل ولماذا؟ لمَ ترغب في إنقاذي مهما كلّف الأمر؟

لكن هل أنقذتني فعلاً؟ ربما ليس ذلك كله سوى فخ. ما الذي يمكن أن تريده مني؟ لماذا تحتفظ بي هنا؟ لَمَ تخفي شخصاً مجهولاً في بيتها؟ ما الغاية من ذلك؟ هل ليمارس معها الجنس ليل نهار في الخفاء؟ في أيّ حال، هذه المرأة تمارس الجنس حتى مع أخيها. إنها تضغط بثديها على فمه...

كلا. عليّ أن لا أبقى هنا فترة طويلة. أنهض وأتجه إلى الرواق. يتابع يحيى بعينيه، والعنقود بين يديه، حيرتي.

لماذا أفكر كثيراً بمهناز؟ لماذا لا أستطيع أن أقبل فكرة أن امرأة تستطيع أن تنقذ مجهولاً بدون غايات مسبقة؟ ربما، بالضبط، لأنها لم تستطع إنقاذ زوجها، تشعر بأن قيامها بذلك هو نوع من الانتقام. ربما حين أنقذت حياتي عادت ووجدت كرامتها الإنسانية.

أعود راجعاً إلى الفراش.

من أجل مهناز وغموضها، تركت أمي، ليلة كاملة، عرضة لكآبتها، وهي بين جدران منزلنا الأربعة. لقد حكمت على نظرة بارفانا بانتظار لا نهائي خلف النافذة؛ لقد أثبطت عزيمة يدي فريد الموضوعتين على مسكة الباب.

آخذ عنقود العنب من يدي يحيى.

يعود سرّ مهناز إلى خصلة الشعر هذه التي تلمها بدون انقطاع من على وجهها لتضعها خلف أذنها.

أترك جسمي أسير زهور الفراش الجامدة.

ولا في أي لحظة شعرت بأني قريب جداً إلى امرأة أخرى غير أمي وبارفانا. ولا في أي لحظة لاحظت من هكذا قرب حياة امرأة. ما من امرأة خطت لها درباً في قلب عقلي، في قلب كينونتي. على مدار ليلة واحدة، تقاسمت مع امرأة آلاف اللحظات من حياة، كما لو أن شيئاً أساسياً قد جمعنا. قدمت لي هذه المرأة سقفها. حياتي التي بين يديها، أصبحت تنتمي إليها.

يقطف يحيى حبات عنب من يدي.

ـ عزيزتي مهناز، لماذا تريدين مساعدتي؟

سترفع كتفيها بالتأكيد. لن تجيبني. ستتكفل نظرتها بالقول:

ـ أي سؤال عبثي هو سؤالك! إن لم تكن سعيداً، ارحل من هنا! ليحفظك الله!

ـ طرحت هذا السؤال كي أفهم حالتي في العمق، كي أعرفك أكثر. . .

ـ وبعد ذلك؟

ـ في نظرتك، في كلماتك، هناك الغموض عينه الذي أراه على وجه أمي. . . غموض لم. . .

ستقوم وترفع، بأطراف إصبعيها، خصلة الشعر عن نصف وجهها. ستنظر إليّ وتبدأ بالضحك؛ تضحك عليّ! ستظن أنني أغازلها. . . بأنني لا أستطيع الإيمان بعفة امرأة، بأني. . .

ـ أعذرني لأني تركتك وحيداً يا فرهد!

يوقظ صوتها جسدي المهمل فجأة. أستعجل الجلوس على الفراش. بعدها بلحظة، صرت واقفا. العنقود المسلوخ يروح ويجيء بين يدي وفقا لحركة عقلي. أشعر بأن مهناز هنا منذ فترة، واقفة على العتبة، وبأنها قرأت في داخلي حوارنا الصامت. شعرت بأن نار الخجل صعدت إلى خديّ.

ـ عليّ أن أهتم بتحضير طعام الغداء.

أتقدم نحوها. تضيع خطواتي فوق السجادة، تتناثر الكلمات في رأسي:

ـ أمي... لا تتعذبي... قريباً... لن تتأخر...

ـ عليّ، في جميع الأحوال، أن أعدّ شيئاً لنا.

تقع نظرتها أسيرة رواح العنقود ومجيئه بين يديّ. أقترب أكثر قليلاً. ازداد خفقان قلبي.

ـ لقد سببت لك الكثير من القلق... أتمنى أن... جدة يحيى...

ابتسمت بمرارة.

ـ لا تهتم بهذا الأمر.

أشاحت نظرها عن عنقود العنب، ابتعدت نظرتها في الرواق. لم يكن يحيى هناك.

ـ مثلما قلت لك مساء أمس، لقد قتل زوجي في السجن.

قلت في داخلي:

ـ السلام على روحه!

ـ تريد مني عائلة زوجي أن أذهب حالياً للعيش مع أخيه...

لكني أرفض هذا... لا زلت أقول بأني لم أصبح أرملة بعد. لا أحد قد شاهد جثة زوجي لأنهم يرمون الأموات في السجن، في حفرة جماعية...

اعترتني رعشة، في أعمق أعماق كينونتي. هل هو الخوف؟ الحقد؟ الغضب؟ أم أنها الأفكار التي راودتني عن مهناز؟ تحدق نظراتي بقدميها!

ـ ترغب عائلة زوجي بأسرها الرحيل إلى باكستان... أما أنا فلا أرغب في ذلك...

قدما مهناز النحيفتان متجذرتان في خطوط السجادة السوداء. خطوط بلا بداية أو نهاية. خطوط تتشابك إلى ما لا نهاية، لتعطي، أخيراً، أشكالاً مثمنة الأضلاع التي تفضي بدورها إلى مربعات، في داخلها دوائر صغيرة.

تعيد إرتجافة من ساقيها وجهي، الضائع بين رسوم السجادة السوداء، إلى النظر إلى وجهها، المغطى نصفه بخصلة شعرها. تبدو كأنها تنتظر جواباً على سؤال لم أنتبه له.

نزع صفير قَذِرٍ جسد مهناز الساهي من على شقّ الباب.

أبقى وحيداً مع السؤال الذي لم اسمعه.

كيف أمكنني أن لا أقول شيئا؟ كيف أمكنني أن أبقى بدون صوت أمام قصتها، أمام حزنها؟ ربما كانت تفضي لأحدهم، وللمرة الأولى، بسرّ حياتها الأليم، أما أنا فبقيت مصعوقا، تائها بين موتيفات السجادة الحمراء والسوداء.

لم ترغب مهناز، فقط، بأن تبلغني عن كربها. مثلها مثل كلّ النساء، مثل والدتي، تريد أن يفهمها الجميع، أن يشعروا بألمها. لا تريد شخصاً آخر مثل محب ذي الأذنين المسدودتين، ذي اللسان والقلب المختومين!

أعود إلى السجادة تحت النافذة. من فوق جثة الشمعة المشوّهة، تبعد يدي الستائر قليلاً كي تدع النهار يسقط على السجادة. باحة المنزل مليئة بنفاذ صبري، تترصد وصول أمي.

أترك تعبي ينهال على زهور الفراش.

في وضوح نور الشمس، تبدو خطوط السجادة السوداء أكثر سوادا، والحمراء أكثر احمراراً. للمرة الأولى ألاحظ كم أن هذه السجادة تحوي كراهية وغضبا! موتيفات سوداء على مسطح أحمر! كما لو أن الأيدي التي صنعت هذه السجاجيد عقدت معا خيطان الغضب الحمراء مع خيطان الكراهية السوداء؛ أيادي نساء، أيادي أطفال...

اشمأز من السجاجيد!

أنزع نظرتي من الدوائر السوداء الموجودة داخل المربعات.

أقع على زهور الفراش.

في سقف الغرفة، نسج عنكبوت خيوطه حول اللمبة.

أخفي وجهي في قعر راحتيّ يديها. يداها باردتان، مرتجفتان، لكن كم هما محسنتان!

إنها أمي. وصلت منذ ساعة، بشكل خفيّ، تحت التشادري[1] التي ترتديه المرأة الغسالة. لم تشأ أن تظهر قلقها وخوفها.

في اللحظة الأولى لم أتعرف إلى والدتي. ثمة ضربات قُرعت على الباب. من بين فتحة الستائر، شاهدت امرأة ترتدي التشادري يتبعها حمّال عجوز على ظهره سجادة كبيرة. دخلوا الغرفة مع مهناز. وضع الحمّال السجادة في إحدى الزوايا وانتحى جانباً. أغلقت مهناز باب الغرفة، لتتركنا وحدنا. بعد أن خلعت حجابها، وضعت والدتي على جسدي نظرتها المليئة بالتعب. كان القلق قد نهش وجهها التي أضاءته ابتسامة. فمها المغلق بهلالين لم يفتح. لم تقل شيئاً. أما أنا فقد ارتجفت. ارتجفت في قعر راحتي يدها. ولم أقل شيئاً.

بقينا هنا في صمت. وجهي غارق في يديها. أسمع تنهيدتها التي تشتعل في صدرها. لم أكن قادراً على رفع رأسي. أحسست

(١) حجاب الأفغانيات، والشادور عند الايرانيات.

بأنها نزعت ثديها الذابل والمليء بالدموع من صديرتها وبأنها ترغب في عصره على شفتيّ الجافتين.

تلمس يدها القلقة الجرح على صدغي.

ـ اليوم، عند الساعة الثالثة، سيأتي مهرب للبحث عنك. سيخرجك من هنا بعد أن يخبئك في السجادة وسيقودك إلى باكستان...

وسكتت من جديد. رفعت رأسي من بين يديها.

ـ لكن يا أمي...

ـ لكن ماذا؟

أمام نظرتها المليئة بالرعب، جاءت أفكاري كلها لتحلّ في كلمة واحدة:

ـ لا شيء.

مدّت لي بورقة مطوية إلى أربع، فتحتها. وجدت عنوان والدي مع قليل من المال.

ـ أين تريدني أن أذهب يا أماه؟

ـ أين تستطيع أن تذهب؟

طويت الورقة مجدداً ومعها كلّ كبرياء والدي الذي لا يحتمل.

ـ وأنتم كلكم؟ وبارفانا؟ وفريد؟

كانت نظرتها تهرب من نظري. أمسكت بيديها. أخفى سعالها الجاف نحيبها المبلل الذي يتدافع في حلقها.

ـ سيتبدل الوضع سريعاً.

هززت يدها كي أمسك بنظرتها. عبثا. تنظر عيناها إلى السجادة. ربما ستدرك بدورها، وللمرة الأولى حقد وغضب الأيدي التي حاكت السجادة.

ـ لنرحل معا يا أمي!

هزت ضحكة صغيرة مريرة جسدها، عادت عيناها لتستعيد أقوال والدتها:

ـ من الأفضل أن يفقد المرء إيمانه بدلا من سقف بيته.

فتح الباب. أطلت مهناز.

ـ أحضرت لكم الشاي.

وضعت مهناز الصينية أمام والدتي وسكبت فنجانين. ابتعد الهلالان من على وجه أمي.

ـ لن أستطيع أبدا أن أشكرك كفاية. . .أعذرينا إن سببنا لك الكم من الهواجس.

مدّت مهناز بفنجان شاي إلى والدتي.

- أرجوك، اشربي القليل من الشاي. علينا أن نتعاون في مثل هذه اللحظات.

نهضت. غادرت الغرفة.

نزعت أمي نظرتها من فتحة الباب، لتضعها في عينيّ.

- كم أنها كريمة هذه المرأة! سأقدم لها هدية جميلة بعد رحيلك.

بللّت قطعة سكر من شايها.

- وأين زوجها؟

- لقد أعدم.

وضعت أمي قطعة السكر المبللة في صحنها. ذاب السكر، تماما مثل قلب أمي.

تغادر نظرتها المليئة بالرعب الغرفة، لتحط على حذائي الذي يرقد في الرواق القاحل.

- ليرحمه الله.

تمتمت شيئاً ما. حملت يداها المرتجفتان الفنجان إلى شفتيها

المرتعشتين. ابتلعت الشاي دفعة واحدة كما لو أنها كانت تريد غسل نحيب حلقها. لو أنها في المنزل، لكانت ذهبت كي تغسل يديها، ولتعود وتغسل الأواني النظيفة أو حجاب بارفانا الأبيض النظيف.

أطلّ يحيى برأسه من فتحة الباب وحملق بنا.

ـ اقترب يا يحيى!

عند سماعه ندائي، دخل الغرفة، لكن صوت والدته جعلته يدور على عقبيه في الرواق، ومن هناك إلى غرفة محب.

ـ هل لديها طفل؟

ـ نعم.

تبحث نظرة أمي بيأس عن الغائبة في الرواق. لم أقل لها أن يحيى يناديني أبي.

ـ كيف وجدت المهرّب يا أمي؟

أجابت ونظرتها لا تزال تائهة في الرواق!

ـ لقد نصحني به خالك.

ـ كم يريد من المال؟

ـ سيقبض السجادة ثمنا لذلك. هذا هو الحل الوحيد.

ـ أمي . . .

وضعت على الصينية مجدداً الفنجان الفارغ ـ جرعات تنهداتها.

تبعثر نظرتها كلماتي في روحي. لمّت تنورتها الزرقاء من على زهور السجادة ونهضت.

ـ عليّ أن أذهب، الغسالة تنتظر حجابها.

ـ لا يا أمي، لا أستطيع الرحيل بدونكم.

ـ ارحل أولاً. سأبيع المنزل وألحق بك مع بارفانا وفريد.

قرأت القلق في نظرتها التي ستضيع في ثنايا الحجاب.

أخذت الحجاب من زاوية الغرفة.

ـ لقد نسيت كيف يتم وضع الحجاب!

تضحك. ضحكة مريرة. ضحكة تجعلني أرتعش. سوّت التشادري فوق رأسها. بدأ الهلالان حول فمها بالارتجاف.

ـ سآتي معك يا أمي.

وقع الحجاب أمام عينيها. لم تسمع كلماتي.

ـ قبل أن أسافر يا أمي، أريد أن أرى فريد وبارفانا.

أخرجت يديها المريضتين من داخل التشادري ووضعتهما على

قلبي. ذاب صوتي داخل حلقي، ليضيع في عينيّ. أخبئ عينيّ في راحتيّ يديها. سال صوتها الرطب عبر شبكية التشادري.

ـ ليحفظك الله...

لماذا تخطو إلى الخلف؟ ألن تقبلني؟ أريد أن أرى عينيها والهلالين اللذين يخنقان نحيبها. أخطو صوبها. خطوة بطيئة! أضع يدي على شبكية التشادري بدون أن أشعر بتعب جلد وجهها. القماشة مبلّلة. أمي تبكي. تبكي بصمت، تحت التشادري؛ يبكي بين هلالين. تغسل أمي بدموعها تشادري الغسالة.

تتراجع خطوة أخرى. يستدير جسدها المترنح تحت غطاء التشادري. تتجه إلى الرواق بحثا عن حذائها. أبقى مسمراً مثل جندي تائه فوق رقعة السجادة الشطرنجية الحمراء والسوداء. تخرج مهناز ويحيى من غرفة محب. ترفض قدماي أن تتحركا. محرومة من النظر، محرومة من الابتسامة، محرومة من الوجه، تقول أمي لمهناز:

ـ ليساعدك الله... ليكافئوك الله...

تضيع كلماتها تحت الحجاب؛ تتسمر قدماي في خيوط الحقد

والغضب التي نسجتها أيدي النساء والأطفال. تختفي والدتي من شقّ الباب.

قدماي في خيوط السجادة.

صوت الباب الذي يغلق يدحرج قلبي.

ـ أماه...

ينقصف صوتي في صدري.

ـ أماه...

أصبح رسما في السجادة.

- أبتاه!

-. . . ؟!

- أبتاه!

تحت ثقل الغضب والقلق، انقصفت الظلمات تحت عينيّ.

أكتشف يحيى إلى جانبي وجسدي يتحرك فوق السجادة.

لقد ذهبت أمي. حملت معها نظرتها الأخيرة تحت التشاردي.

مدّ إليّ يحيى بكوب ماء. نزعت نفسي من على رسوم السجادة، جلست وابتسمت كجواب على نظرة يحيى المليئة بالعاطفة. جررت جسدي المحطم بالأوجاع حتى الفراش الذي تحت النافذة. شربت الماء من يديّ يحيى.

- أين أمك؟

- في المطبخ.

أنهض. تقودني رائحة بصل إلى المطبخ. كانت مهناز تُقطّع البصل وظهرها إلى الباب. بقيت لعدة لحظات واقفا على العتبة أراقبها بصمت. لمَ أنا هنا؟ لمَ يرتجف جسدي؟

لاحظت مهناز وجودي. أدارت وجهها باتجاهي ومسحت دموعها بكُمّها. نظرت إليّ ضاحكة. إنها المرة الأولى التي تضحك فيها. تضحك لتفهمني أن البصل هو من يجعلها تبكي، لا الكرب. أضحك أنا أيضاً. بدوت سخيفا!

أفرغت مهناز البصل المفروم في القدر. كما العادة، تجعلني رائحة البصل اشعر بالجوع. يفوح عطر يديّ أمي في المطبخ. كما العادة، اشعر بقلبي يقفز من مكانه وأرغب في أن أمسك بقطعة خبز وأغمسها بهدوء في البصل المقلي في القدر. أرغب في وضع يدي على كتف مهناز، أن ألتقط بنفسي خصلة الشعر من على وجهها.

ـ لا بد أنك تشعر بالجوع؟

ـ رائحة البصل تجعلني أشعر بالجوع دائما!

أسند نفسي على كوة النافذة. أشعر بأني أقطن هذا المنزل منذ سنوات، بأني أعرف مهناز منذ سنوات. أحس بأن يحيى يناديني «أبي» منذ سنوات، وبأنه منذ سنوات رحلت أمي، ومن سنوات أرغب في الرحيل ولم أفعل. من سنوات وأنا أسأل مهناز:

ـ لمَ لا ترحلين معي؟

توقفت مهناز للحظات عن تحريك البصل في القدر. يخبط قلبي صدري. تستدير نحوي وتضحك. ضحكة مليئة بالمرارة!

ـ يا عزيزي فرهد! حياتي ليست بسيطة بهذا القدر!

عادت لطبختها. رائحة البصل المقلي تحيل البيت أكثر ألفة. تابعت مهناز:

ـ إن رحلت إلى باكستان، فسأضطر على الزواج من شقيق زوجي.

ابتعدت عن الباب وذهبت لأسند ظهري إلى حائط المطبخ. أسأل:

ـ وعائلتك أنت، أين هي؟

أفرغت مهناز ماء في القدر، ومن خلال غيمة البخار المتصاعدة منها، قالت:

ـ لم يبق منها إلا محب وأنا. رحل الآخرون كلهم إلى ألمانيا.

بمطفحة هرست البصل في القدر.

ـ مضى وقت لا بأس به لم أتصل به بعائلتي.

حبست أنفاسها.

ـ عندما ولدت. . .

غطت القدر.

ـ. . . لم أكن أصرخ، لم أكن أضحك، لم أكن أبكي. . .

أخذت ببعض أجنحة الدجاج من كيس.

ـ. . . اعتقد الجميع بأني كنت صماء بكماء فخطّبوني بسرعة إلى ابن خالتي الذي كان أصم وأبكم. لكن حين كبرت، لم أكن لا بكماء ولا صماء، بيد أن أحدا لم يعر الأمر أي انتباه. . .

غسلت قطع الدجاج بالماء.

ـ مات أبي وهو شاب بعد. لم تكن علاقتي جيدة بأمي. لمّا بلغت، وحين جاءت اللحظة لأتزوج ابن خالتي، رحلت من المنزل وتزوجت والد يحيى.

رفعت غطاء القدر وسكبت القليل من الماء.

ـ في المساء التي هربت فيه عائلتي بأسرها إلى باكستان، تركت والدتي محب على بابي. . .

تركت نفسي أنزلق على طول الحائط وقرفصت على أرض المطبخ الإسمنتي. مرّة أخرى أفقدتني قصة مهناز صوتي. مرّة أخرى شعرت بأن أي كلمة إضافية ستزيد عن حدها، بأن أي حركة ستبدو بدون معنى.

نسيت رائحة البصل المقلي. خلال لحظات، لم أر سوى شعر مهناز الأسود، التي كانت تدير لي ظهرها.

ـ ما الذي يمكنني أن أفعله كي أساعدك؟

طرحت السؤال رغما عني. جاء جوابها، مريرا:

ـ لا شيء!

في هذا اللاشيء تختفي قصة بأكملها يجب معرفتها والتفكير بها.

ـ ماذا لو رحلنا إلى إيران؟ لن تجدي هناك عائلة زوجك.

لم تصدر عنها أي ردة فعل. وضعت أجنحة الدجاج في القدر، ومن دون أن تنظر إليّ قالت:

ـ يا عزيزي فرهد، إن عائلة زوجي غريبة جداً. بالنسبة إليها، الشرف والدم، يشكلان أمراً واحداً. لا تهتم بنا. أنا على ما يرام هنا، أشعر بالاطمئنان.

وضعت الغطاء فوق القدر.

في زاوية من المطبخ، خفقت رغبة الحب في قلبي.

كنّا كلنا في غرفة محب، جالسين أرضاً حول سماط. نأكل بصمت. حلّت أجنحة الدجاج، في أفواهنا، مكان الكلمات. كما لو أن كلّ شيء قد قيل؛ كما لو انه لم تعد هناك أسئلة لتطرح، لم تعد هناك أجوبة لتسمع. الجميع ينتظرون يديّ المهرب اللتين ستطرقان الباب.

طرقت. نهض يحيى، وفي يده عظمة دجاج. ركض نحو الباب. رنت قدماه الصغيرتان في الباحة. وصل إلى الباب. فتحه وعاد منقطع الأنفاس:

ـ هناك رجل جاء ليشتري سجادة.

نهضت. تدحرج قلبي، تهاوت ساقاي. قلت لمهناز:

ـ إنه المهرب الذي جاء ليخرجني من هنا. لا أريد الرحيل!

نهضت مهناز، لمّت خصلة الشعر من على وجهها، وقالت بصوت متناسق:

ـ انتعل حذاءك.

لم أشح نظري عن نظرها. هي من يتجنب النظر إليّ. أريد أن أضع حياتي بين يديها. غادرت مهناز الغرفة. بدأت محب بالهمهمة فجأة. بكيت، أنتحب داخل صدري.

قادت مهناز المهرب إلى الغرفة الأخرى، حيث كنت موجودا. أمسك يحيى بيدي التي لا تزال لزجة ودبقة وسأل:

ـ هل ستعود سريعاً يا أبي؟

بدون أن أغسل يديّ دخلت الغرفة. فرد المهرب على الأرض سجادة منزلنا. فاحت منها أصوات الضيوف ورائحة خطواتهم. بدا لي بأن لون سجادة «الفيلباي»[1] صار أكثر احمراراً، وبأن رسومها السوداء أصبحت أكبر وأعتم.

ـ هيا يا أخي، تعال لنقم بمحاولة!

كانت مهناز واقفة على عتبة باب الغرفة. ألقى يحيى رأسه الصغير على زهور تنورة والدته الخضراء. رغما عني تمدّدت في وسط السجادة تحت نظرة مهناز المغلقة. لفني المهرب بالسجادة، صارخا، «يا علي!» وهو يرفعني على كتفيه العريضين، وليمشي بي. على وقع خطواته، عرفت أنه وصل إلى الباحة. إلى أين يذهب؟ إلى أين يأخذني؟ لا! أريد توديع مهناز! فتح الباب على الشارع. لا!

---

(١) تسمى هذه السجاجيد الأفغانية، بالفيلباي، أي قوائم الفيل، لأن الرسوم المثمنة الأضلاع التي تسمها تشبه أثر خطوات الفيل.

ـ مهناز!

ضاعت صرخاتي بين رسوم السجادة. أريد أن أخلص نفسي.

ـ توقف عن الحراك يا أخي! أصبحنا في الشارع.

ـ لا أريد أن أذهب! هيه، أنت، أتسمعني؟ مهناز، يحيى!

قطع صوت باب فتح صرختي بصرامة. وضع المهرب السجادة في صندوق سيارته. أغلق الباب. أريد أن أساوم، أريد تحرير نفسي من رسوم السجادة السوداء.

ـ أبي! أبي!

من الخارج، كانت صرخات يحيى تأتي لتنزع عن السجادة أصوات وروائح «المحميخانه».

لم أعد أعرف إن كانت رسوم السجادة هي الكبيرة أم أنني أصبحت صغيراً جداً. أركض على طول خطوط السجادة السوداء. ينتصب أبي إلى جانبي. كان كبيراً، كبيراً جداً. يمنعني من مغادرة خطوط السجادة السوداء ومن أن أمشي على خلفيتها الحمراء. أركض، أدور في حلقة، كما لو أنني علقت في متاهة. ليس هناك لا بداية ولا نهاية لخطوط السجادة السوداء. كلّ الخطوط تتصل ببعضها البعض. أركض على طول الأشكال المثمنة والمربعة. أركض وأبكي. يزعق أبي:

ـ أركض! أركض! توقف عن البكاء! أيها الكافر!

أحاول أن أتخيل وسيلة للهرب من هذه الأشكال المثمنة ومن المربعات السوداء من دون أن أدوس الخلفية الحمراء. ليس هناك سوى حلّ واحد: أن أثقب السجادة، وأن أستمر في الركض إلى أن تبلى السجادة تحت قدمي وتنثقب. أركض. عند كلّ دورة، أصبح أصغر. أركض من دون أن أتوقف أبدا. تكبر الرسوم عند رؤيتها. أحس بأنني جزء من السجادة. أشعر بحمرة الخيوط.

تجتاح رائحة السجادة منخري. تلفني الظلمات. يتوقف تنفسي. لا أستطيع الحراك.

ـ قل له أن يبقى ساكنا.

أسمع صوت المهرب عبر هدير السيارة الرتيب. ليعقبه سريعاً صوت امرأة تقول:

ـ لا تتحرك يا أخي، وصلنا إلى نقطة تفتيش.

تحت ثقل الجسدين الرابضين على السجادة، أحبس أنفاسي وقلقي في قعر صدري.

يدور رأسي في متاهة السجادة الحمراء والسوداء.

كانت يداه المعقودتان على صدره المنتفخ بالكبرياء أكثر لامبالاة من نظرته.

- سلام يا أبي.

كلا. لن أناديه أبي.

- سلام.

- وعليكم السلام.

وماذا بعد؟

- لقد هربت أنت أيضا؟

فاح من سخريته خبث احتقاره.

- لقد تركت أمك وشقيقك وأختك لتأتي إلى هنا؟

ترك لي صمته المليء بالعجرفة الوقت لأستعيد في ذاكرتي آخر الكلمات التي تفوهت بها حين هرب مع زوجته الثانية. كلمات تبخرت بسرعة مع اهتزاز الجسدين الرابضين فوق السجادة. توقفت السيارة. تركت والدي ويديه المتعجرفتين بالقرب من زوجته.

فتح الباب الخلفي. صدح صوت في الداخل:

- إلى أين أنتم ذاهبون؟

ـ إلى موساي لوغار.

إنه صوت الرجل الذي أجاب الجندي الواقف على نقطة التفتيش.

ـ من هم هذين الشخصين؟

ـ زوجتاي الاثنتان.

شعرت بأخمص البندقية وهو ينهال على السجادة.

ـ وهذه السجادة، إلى أين تأخذها؟

ـ إلى عرس أخي.

أغلق الباب وتقدمت السيارة. نهضت المرأتان من على السجادة. كان جسدي غارقا بالعرق البارد. رفعت يدان أطراف القماشة التي كانت تسد طرفي السجادة. تنشقت ملء رئتي.

أيقظ العرق رائحة السجادة. رائحة أليفة. رائحة «المحميخانه». تلهو بارفانا بلعبة «الحجلة» على مربعات السجادة الكبيرة السوداء. يُسير فريد عربات صغيرة، صنعها من علب الكبريت، فوق تشابك الخطوط السوداء. كانت أكبر سجادات المنزل، كانت المهر الذي تلقته أمي من والدها وحملته إلى بيت زوجها.

يبرش لي مهر أمي وجهي.

كلا. ما من شيء يجعلني أذهب لرؤية والدي. لا أريد البقاء في بيشاور. أريد أن أرحل إلى إسلام أباد. كلا. لا أحب هذه المدينة أيضاً. سأذهب إلى مكان آخر، إلى كراتشي أو إلى لاهور. وحتى إن لزم مواجهة المياه والنار، سأعمل على الإتيان بأمي وبارفانا وفريد.

توقفت السيارة. تحركت السجادة التي لفني بها المهرب؛ حُملت إلى خارج العربة ووضعت أرضاً. درت معها. فتحت السجادة. أعشى نور الضحى المتعامد بصري. ملأت رئتي بالهواء الندي وبرائحة الأرض. بمساعدة المهرب، نزعت جسدي الممتزج برسوم السجادة السوداء. توقفت السيارة عند انعطافة حلبة تمتد على طول هضبة مغطاة بأجمات شوك.

ـ سنسير على طريق قادومية. بعد ساعة سنصل إلى القرية.

أخرج المهرب علبة سجائره من جيب سترته ومد بها إليّ.

ـ شكراً، لا أدخن.

وضع سيجارة بين شفتيه المزرقتين، أشعلها وتربع على السجادة. نزلت زوجتاه، اللتان لا تزالان غير ظاهرتين من تحت التشادري، من السيارة وجلستا على طرف السجادة الآخر وهما تديران لنا ظهريهما. بقيت واقفاً.

اجتاح صوت المهرب كما دخان سيجارته الوادي الأصفر.

ـ بعد غد صباحا، عند الفجر، وعند صوت المؤذن، سنبدأ بالمسير إلى باكستان، إنشاء الله. يلزمنا يومين من السير. هل أنت...

قطعت ضحكات المرأتين المخنوقة كلامه.

ـ هل من سبب يجعلكما تضحكان؟

سكتت المرأتان. تابع المهرب كلامه.

ـ في القرية، ستقيم في الجامع. تجنب الحديث مع الناس! على فكرة، هل تحمل بطاقتك الدراسية؟

ـ كلا.

ـ بطاقة هوية؟

ـ كلا. لقد أخذ الجنود كلّ شيء.

ـ هذا أفضل. ما هي الأوراق التي تحملها؟

فتشت في جيوبي بشكل تلقائي. ما عدا الألفي ليرة أفغانية والورقة المطوية التي تحمل عنوان والدي، لا أحمل شيئاً معي.

خفق قلبي. هل بحثت مهناز عن أوراقي في الحفرة؟ وثيابي؟ هل احتفظت بها؟

ـ إلى أين أنت ذاهب يا أخي؟

عدت إلى قدم الوادي، نحو السجادة الأرض. في إحدى زوايا السجادة، كان هناك المُهرّب بثوبه المنسوج بالاستراخان الأسود، وفي الزاوية الأخرى، زوجتاه تحت التشادري الأزرق والأمغر... والشمس التي تمزج ظلالهم بخطوط السجادة السوداء.

ـ عفوا، ما الذي كنت تقوله لي؟

ـ هل تجيد الصلاة؟

ـ أتذكر قليلاً...

ـ في بعض الليالي، يأتي ضيوف شبان ليجتمعوا في الجامع وليمضوا الليل هناك. إنهم حذرون جداً تجاه الذين يأتون من كابول، إنهم يطرحون الكثير من الأسئلة. عليك أن تحتفظ بدمك البارد بخاصة. لا تترك نفسك تنساق في نقاشات سياسية. يجب أن لا تقول بأنك كنت في الجامعة. قل أنك كنت في المدرسة لغاية الصف السادس وأنك فيما بعد اضطررت لكسب قوتك.

هل غسلت مهناز ثيابي؟ هل ستلبسها لمحب؟ كلا.

ـ هل لديك أحد في باكستان؟

ـ كلا؟

سكت. تنظر عيناه الصغيرتان الغارقتان في رموشه المشعثة دخان سيجارته وهو يرقص تحت نور الشمس الغاربة.

ـ أليس لديك ولو عنوان واحد؟

ـ هل الأمر مهم؟

ـ أجل. إن طرح عليك أحد سؤالا، قل إنك أخرجت زوجتك وأطفالك وتريد أن تلحق بهم.

ـ والدي موجود في باكستان.

ـ لمَ قلت إذا بأن ليس لديك أحد؟

ـ لا أريد الذهاب إلى عند والدي.

ـ هذا أمر يخصك، لكن من الأفضل أن يكون لديك عنوان.

كلا، لا أريد أن أقع بين يدي والدي المتعجرفتين.

ـ لمَ لم تصطحب معك زوجتك وابنك؟

ـ زوجتي وابني؟

مهناز ويحيى؟!

ـ لو كنت مع عائلتك لكان كلّ شيء أسهل...

رمى سيجارته بعيداً. صدح صوته عن كعب الهضبة.

ـ يا الله! هيا بنا. استعداد، سنرحل.

وقفت المرأتان وصعدتا إلى السيارة. لف المهرب السجادة، لكن هذه المرة من دوني، ليضعها مجدداً في سيارته. نزعت المقاعد الخلفية. جلست على السجادة الملفوفة. جلست المرأتات بالقرب من زوجهما.

عند مرور السيارة، اختفى الدرب الملتوي داخل غيمة من الغبار. تسقط آخر لحظات الغسق المتأججة على كتف المهرب.

تركت نفسي أنزلق من على السجادة إلى أرضية السيارة. وضعت رأسي على السجادة. أريد أن أتنشق أثر خطوات والدتي.

بعد خروجها من عند مهناز، متسترة بالتشادري، ذهبت والدتي إلى ضريح «الملك ذي السيفين». عقدت قماشة على سياج القبر وتمنت أمنية. تضرعت أن يصل ابنها سالما سليما إلى باكستان. بكت أمي. لكن أحدا لم يلحظ دموعها. لم يسألها أحد:

ـ لِمَ تبكين يا أمّاه؟

بكت أمي، أكثر من أي وقت مضى. عادت من الضريح إلى المنزل سيراً على الأقدام، وكان قناعها المرعب يختفي خلف التشادري. عادت بسرّية، كأن لا معنى لها حتى أنها لم تستطع أن تقول إلى أحد:

ـ ولدي البكر، رجل المنزل، هو مسافر الآن!

ولم يجبها أحد:

ـ ليبقى مكان مسافرك دائم الاخضرار!

تحت عفارة التشادري، كانت تشعر بجنون الحزن. اجتازت أمي وهي تبكي شوارع المدينة بعمى؛ وصلت إلى المنزل. لفت التشادري المصنوع من دموعها ومدت به إلى الغسالة؛ ثم ابتعدت بهدوء إلى المطبخ كي تعيد جلي الأواني النظيفة. بعد أن ترحل الغسالة، ستذهب لتلم الغسيل الجاف من على الحبل كي تغسله مجدداً.

لم تقل شيئاً لبارفانا وفريد عن هروبي. ستخبرهما غداً. لا تعلن أمي خبراً سيئاً للتو. تتركه يسكنها فترة ما، تبكي، تظهر حنقها... غدا صباحا، عند الفطور، ستقول:

ـ يا أولاد، لقد رحل فرهد إلى باكستان.

تذهب بارفانا إلى الغرفة الأخرى. تعض فولارها المدرسي الأبيض لتخنق نحيبها. يبقى فريد، وعيناه مخنوقتان بالدموع، قرب والدتي. تسقط البراءة فجأة من عينيه. ينفخ صدره قليلاً. إنه هو الآن رجل البيت. يمسك يديّ أمي المتعبتين بين يديه الصغيرتين البريئتين. غدا، سيوضع «الكيليم» الموجود في غرفتي، في «المحمنخانه» الخاصة بنا.

توقفت السيارة أمام «قالا»[١] صغير. ينزل المهرب السجادة ومعها كلّ مناخ منزلنا. تلاحقه أعين زوجتيه، يحمل كلّ شيء إلى داخل المبنى.

أبقى وحدي مع كلبين بأذان مقطوعة هرباً من البوابة الكبيرة ليحوما حول السيارة الفارغة من الذكريات والمليئة بالكآبة.

(١) بيت تقليدي. نوع من المنازل المشيدة باللبن.

في إحدى زوايا الجامع، غير البعيدة عني، ينام رجل يسند رأسه على قطعة قرميد. تغطي خصلة طويلة من شعره الأبيض وجهه، وجسده المتكور حول نفسه، ملفوف بـ«تشابان»(*) من اللبد الأسود. ينام بطمأنينة. لم ينهض حتى للصلاة ويبدو كأن أحدا لم يلحظه. كما لو أنه ليس موجودا.

حول أربعة مصابيح نفط، جلس على شكل دائرة، شبّان وكهول مغطاة وجوههم بلحى كثيفة. الجميع مسلحون هنا. كنت وحدي في زاويتي وبدون سلاح، ساندا ظهري إلى جدار الجامع.

رشّ يحيى مياها فوق الشرفة. عفّت رائحة الأرض وبورية القصب لتملأ باحة المنزل الصغيرة. قادت مهناز محب إلى الشرفة، حيث جلس الثلاثة، حول المصباح النفطي. تناولوا عشاءهم بصمت. بمَ كانوا يفكرون؟ بي؟

سيسأل يحيى بالتأكيد:

ـ هل رحل أبي مجددا إلى «بول ـ إي شاركي»؟

(*) معطف تقليدي ذو أكمام طويلة، يصنع إما من الحرير وإما من اللبد.

هل ستقول له مهناز بأنني لست والده؟ ربما، ستتصرف مثلي، إذ لا ترغب في أن تحطم أحلام الطفل؟

تضع ثيابي لتجف على حبل غسيل موجود على الشرفة. تفكر مهناز بي.

عبق داخل المسجد بدخان الحشيش وبرائحته.

كلا، لن تفكر مهناز بي. ستحاول جاهدة أن تنساني. ستطرد من حياتها أقل أثر من آثار مروري. ما إن تنتهي من غسيلها حتى تعطي ثيابي إلى أي متسول. أرغب جدا في أن تعرف أن أحدا يفكر فيها في هذه اللحظة، بأن أحدا أغرم بهذه الخصلة المرتجفة من شعرها التي تغطي نصف وجهها، بهذه اليد الواثقة التي تلّف الخصلة خلف أذنها.

كانت سيجارة الحشيش تنتقل من يد إلى أخرى ضمن حلقة الشبّان الخمسة الملتحين الموجودين أمامي. مدّ لي أحد الشبان بالسيجارة. قال الجالس قربه من دون أن يرفع أذنيه:

ـ إنه شخص من كابول، تلزمه الفودكا!

رنّت ضحكات الشبان الساخرة في هواء الجامع الدخاني.

لم أكن قد دخنت سيجارة يوما، فكيف بسيجارة حشيش!

هل بدأت طور الانحدار؟ ماذا لو كان الأمر اختبارا ما؟ حسنا، لا يدخن المرء داخل الجامع؟!

همهمت لحية الشاب السوداء الذي مدّ لي السيجارة:

ـ آسف، إنها عشبة الفقراء!

بدأ دخان سيجارتهم كما ضحكاتهم الماكرة بالدوران حول رأسي.

ارتفع صوت من دائرة أخرى.

ـ من دائرة إلى أخرى، من تخلى عن شكواه...

أكمل الآخرون على شكل كورس

ـ ... رأسه لن يقاوم.

أيقظت جلبة الأصوات الرجل العجوز الذي كان نائما إلى جانب الخفان. أم هل كان مستيقظا لكنه كان يغلق عينيه؟ ينظر باتجاهي. عكس بؤبؤا عينيه نور مصباح معلّق على عمود خشبي. لم أفهم معنى ابتسامته. مددت يدي تلقائيا باتجاه سيجارة الكيف، وحملتها إلى شفتيّ الجافتين وامتصصت الدخان بكل قواي. أشعل سعال حاد صدري.

ـ لقد دمرت الفودكا كبدك! على الحشيش أن يتكفل برئتيك!

فجرت ضحكاتهم الاستهزائية صدغيّ. أصبح جسدي ثقيلا. جفّ ريقي. غرق الجامع في عتمة الدخان.

لَمَ دخنت؟ هل من نزعة انتحارية في داخلي؟ كما لو أن دمي تخثر في عروقي وقلبي يخفق بدون سبب. عليّ أن أقف مجددا.

وصلت سيجارة كيف من حلقة أخرى:

ـ إنها من شاهدجهاني!

من جديد، أمسكت بالسيجارة، امتصصتها بكل قواي. ومن جديد، سعلت وشعرت بان سعالي يمزق مفاصلي.

رفع الدرويش رأسه. عيناه مكدرتان. حاجباه، قوسان، توأمان نائمان جنبا إلى جنب، كانا يغطيان جبهته المخددة بأسرها تقريبا. كما لو أنه امتص بين أسنانه وجنتيه إذ بدتا غارقتين. ثمة هدوء وقسوة يسكنان نظرته. ترتجف شفتاه. يهمهم بشيء ما لم يسمعه أو يفهمه غيره. رفع عنه التشابان الأسود الذي كان يغطيه.

فُتح باب المسجد. أدخل رجل، ذو لحية بيضاء، معه السكينة وثقل الليل تحت خطوته الغاضبة. نهض الجميع لتحية القادم الجديد.

كنت غير قادر على النهوض. رأسي يدور. جررت نفسي مجدداً نحو الحائط كي أستند عليه.

كان القادم الجديد يغطي عينه اليمنى تحت ذيل عمامته السوداء.

أخذ مكانا في الجزء الأعلى من الجامع. جلس العديد من الشبّان عند قدميه. أمسك الرجل الكتاب القديم الذي كان يحمله تحت ذراعه، وبدأ بتلاوة آية من القرآن ليأمر، بعد ذلك، شابا بأن يقرأ سورة يوسف:

ـ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ.

هل أنا الذي يرتجف أم أن جدران الجامع تهتز.

أغمض عينيّ.

ـ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ

ـ صدق الله العظيم!

بدأ كلّ شيء بالدوران داخل رأسي. أنهض. أمسك بالدعائم الخشبية التي يرتفع عليها سقف الجامع. أترك يوسف إلى جانب أبيه وأتوجه نحو باب الجامع.

ـ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

أين اختفى حذائي؟ أتجه خارجاً حافي القدمين. الهواء منعش. انتشر حسد إخوة يوسف خارج جدران الجامع. أجرّ نفسي إلى سبيل الماء. يغسل هدير الماء من روحي عواء قطيع يعقوب. السماء ملبدة. ذهبت النجوم والقمر لتسجد عند قدميّ يوسف. أضع وجهي في هذه الماء التي من دون نجوم. تندلق رائحة الحشيش ودخنته من روحي ومن منخريّ في مجرى الماء. أشفي غليلي وأتوجه نحو الشجرة الكبيرة لأتبول.

من داخل المسجد كانت تصعد صرخات يوسف. رماه إخوته في قعر البئر. ومن خلف الليل كان نحيب جدي يرتفع. في كلّ مرّة يقرأ فيها هذه الآية يبكي مثل يعقوب.

أبول على جذور الأشجار. سمّرني صوت رصاصة وصراخ رجل في مكاني.

ـ أيها الكافر القذر!

استقرت الرصاصة في الشجرة. انحسر بولي. تقدم الرجل تجاهي في عتمة الليل.

ـ ملعون هو أباك! أيها الزنديق! تتبول واقفا مثل حمار!

دفعني بفوهة سلاحه باتجاه المسجد. ما إن وصل إلى مدخل المسجد حتى بدأ بالصراخ:

ـ ابقى هنا! لا تدخل الجامع بثيابك النجسة!

اختفى في الداخل. عبر باب المسجد كانت سورة يوسف تتدفق إلى الخارج مع نور المصباح النفطي. مرت قافلة وأخرجت يوسف من البئر وباعته إلى وزير الفرعون.

ظهر الرجل مجددا وهزّ لي بسلاحه لكي اتبعه. وصلنا إلى سبيل المياه.

ـ توضأ!

بشكل آلي، انحنيت قرب مصدر المياه وبدأت بغسل يديّ وقدميّ. تلوت بصمت صلوات الوضوء. كان انتباهي يتركز على فوهة بندقيته.

ـ أيها الخنزير! أيها الكافر! ألا تغسل أعضاءك الحميمة؟

ارتجفت. هل كان من البرد؟ من الخوف؟ أنزلت سروالي.

كنت أستعد للاغتسال حين مدّ الرجل يده باتجاه خصيتيّ. قفزت مبتعدا إلى الوراء.

- لا تتحرك! هل حلقت شعر أعضائك؟

أمسك ببعض الشعيرات، وانتزعها بوحشية. جمدت صرختي المياه.

- حقير كافر!

انتهيت من الاغتسال ورفعت سروالي المبلل. لساني مخدر. انقصف كبريائي تحت ثقل الرعب.

منحنيا فوق المياه، أعدت وضوئي. تقدمت حافيا، تحت تهديد الرجل بقتلي، باتجاه المسجد. إلى أين وصلوا في سورة يوسف.

- وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

امتلأ المسجد بمحاولات زليخة الشيطانية.

- وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ

حين دخلت إلى الجامع كان يوسف قد رمي به في الزنزانة. أشار الرجل الجالس في القسم الأعلى من المسجد إلى الشاب بأن يتوقف عن القراءة، مغلقا على مصير يوسف بين صفحات القرآن.

لا يزال الدرويش في مكانه، كانت عينه المفتونة مصوبة إلى مصباح معلّق على الحائط. أمرني الرجل الذي جاء بي إلى الجامع، هامسا، بأن أذهب لأجلس في زاوية، فاستعجلت بالجلوس قرب الدرويش.

رنّ صوت الواعظ في الجزء الأعلى من المسجد.

ـ أرأيتم مصير يوسف، هل رأيتم كيف نصب له الشيطان فخا. تذكروا بأن النساء هن فخاخ الشيطان!

اقترب الرجل الذي فاجأني حين كنت أتبول من الواعظ وهمس له بشيء في أذنه. نظر إلي الواعظ نظرة غاضبة. نهض. صرخ الشبان المجتمعون دفعة واحدة:

الحمد لله! الحمد لله! الحمد لله! ليحمنا النبي من الخطيئة.!

كنت الوحيد الذي سمع صوت الدرويش:

- لِمَ علينا أن لا نرى في النبي ما نراه في أنفسنا؟ على كلّ واحد أن يحمي نفسه من الخطيئة!

لِمَ لا ينتهون من قراءة سورة يوسف؟ هل يمكن لمصيري أن يكون أهم من مصير يوسف؟

بعد أن تحدث مع شخصين أو ثلاثة من مساعديه، مر الواعظ أمامي بنظرة مليئة بالحقد ليصرخ إلى واحد من الشبان الملتحين:

هذا الرجل كافر. لا تتركوه يرحل. سيلوث باكستان!

خرج من الجامع بخطوات طنّانة. أراح الدرويش رأسه على حجر القرميد.

اختفى الدخان. امتلأ المسجد باضطراب يوسف.

يوسف في الجبّ. أحال الحزن يعقوب شخصا أعمى. ووالدة يوسف؟ أين هي؟ يجب أن يكون حزنها أكثر إيلاما من حزن يعقوب، وحزن زليخة أكبر بكثير أيضا! إن كان يوسف قد أقفل عليه كي يبكي، فإن هاتين المرأتين قد أصبحتا حبسا؛ لكنهما ليستا حبسا من حجر بل من لحم. لِمَ لا يفكر أحد أبدا بهاتين المرأتين؟ لتذهبوا وترموا بقميص يوسف أمام عينيّ والدته[1]!

خمد المسجد في خدر الحشيش وأنا في سحر زليخة.

ـ طالما أن نعاسك لا يساوي اليقظة، فلا تنم أبدا[2]!

هو الدرويش الذي اقترب مني. أمسك بيدي وسحبني خارج الجامع.

الجامع، الصامت والساكن، تاه في ضباب الليل الأسود. وصلت مع الدرويش إلى نبع الماء. سكب المياه على وجهي.

سألت:

ـ من أنت؟

---

(١) إشارة إلى واقعة أن يعقوب، والد يوسف، فتح أعينه بأعجوبة عندما رأى قميص ابنه المحبوب الذي كان قد فقد.

(٢) إشارة إلى قول شمس التبريزي في «المقالات».

ضحك وأجاب

ـ إنه سؤال معقد. دعني أفكر بالأمر....

شرب عدة جرعات. تركته يفكر. ضحك وهو يراني في حالة الانتظار هذه.

ـ يسمونني العصفور!

سكت.

سرنا نحن الاثنين على طول مجرى النبع. طرد وجود الرجل خوفي وقلقي. بعد عند خطوات، توقف الدرويش وقال:

ـ جب العالم!

قرفص على حافة النبع وهو يضع يده في الماء.

ـ عندما تركد المياه، فهي تصبح آسنة. تحول التراب إلى وحل. لتكن مثل الماء التي تنساب بين يديك!

ـ أريد أن أرحل من جديد!

ـ كلنا منذورون للرحيل ذات يوم!

داعبت يده سطح الماء.

ـ لا، أريد أن أعود إلى منزلي، في كابول!

ـ هنا سيقتلون جسدك، أما هناك فسيقتلون روحك! أخرج القرميدة من جيب التشابان ووضعها في الماء.

ـ ذات يوم، سنصبح كلنا مثل هذه القرميدة.

نهض ضاحكا ليقفز إلى الضفة الأخرى.

سرنا إلى رأس النبع. وبعد عدة خطوات اختفت المياه في قناة تحت الأرض.

لا أريد أن أعود إلى الجامع. أرغب في البقاء قرب هذا الرجل حتى طلوع الفجر. سأقول له غدا أن يأخذني إلى كابول...

ـ إن وجدت نفسك، فارحل خفيف القلب!

بدل صوت الدرويش رحلتي إلى كابول. ذاب صوته في حرير المياه الخفيف. وصلنا إلى نبع آخر.

ـ إن وجدت الآخر، تعلّق بعنقه وارحل!

ابتعد. سمّرني صوته في مكاني.

ـ وإن لم تجده... تعلّق حينئذ بعنقك أنت!

ابتعد الرجل.

ـ أين؟

لم يسمعني. أو أنه لم يكن يرغب في إجابتي. لم أعد قادرا على التحرك.

تسمّرت مكاني. ذاب الرجل في الليل.

ـ لا تتركني!

انزلق يأس صوتي فوق المياه.

صعد صوت الرجل من جهة الليل الأخرى:

ـ تعلق بعنقك أنت!

في المكان القاحل الذي كان ينام فيه الدرويش طفت هالة من الدخان. المصابيح النفطية تعطي ضوءا خفيفا، نورا أضعف مني. الجميع نيام. أريد أن أنهض. أحس بنفسي ثقيلا. استندت إلى حائط الجامع.

- إلى أن أنت راحل؟

سمّرني صوت الرجل الناعس، المستلقي على البورية، في مكان غير بعيد عني، على الجدار. من يعرف لماذا سألت:

- أين الدرويش؟

بحركة غير إرادية اشار إلى مكان الدرويش الفارغ. أعاد الرجل رأسه على البورية وغطى عينيّه بجزء من قفطانه المحلول. ضاعت تمتماته في البورية:

- أي درويش؟!

تصاعد صوت من زاوية أخرى:

- لقد بدأ مفعول الحشيش الآن؟!

- كلا إنه مسرنم.

ضحكوا. ضحكة صماء وغادرة. تقدمت خطوة. ترنح الجامع معي. مزق العطش قصري. ماء!

وصلت إلى باب الجامع. فتح الرجل الخامد عند مدخل الرواق، جفنيه الثقيلين وسأل:

ـ هيه، إلى أين أنت ذاهب؟

ـ أريد ماء!

ـ اذهب واشرب من جرة الجامع!

ـ إنها فارغة.

ـ اذهب واملأها إذا!

أدار رأسه وسحب الغطاء الكبير فوق وجهه.

أين هي الجرّة؟ ما من نقطة دم واحدة في جسمي. جسدي جاف. مثل البورية تحت قدميّ. أشعر وكأن قدمي تشكلان امتدادا لبورية القصب. لا تتحركان. أنا بحاجة إلى الهواء الندي. المسجد عابق بالدخان أكثر من رئتي. ما من هواء.

ـ هل تريد أن تصلي؟

الصوت عينه تسرب من تحت الغطاء. اجتازت قشعريرة جسدي الجاف. تقدمت بقدمي اليمين خطوة. تجمدت مكانها. خطوة أخرى. ومن ثم خطوة إضافية. أنا في الخارج. بدون جرّة. بدون حذاء.

أضيء نور السماء. بدا هدير المياه قريبا جدا. قادتني المياه إليه. ركضت. ارتجفت الأرض الباردة، المليئة بالحصى، تحت خطواتي. وصلت إلى النبع. جلست إلى حافة المياه.

سيخبرني الفجر إلى أين رحل الدرويش.

سكت النبع فجأة. بدأ يفرغ من مياهه. أريد أن أنهض. تنزلق قدمي. أقع في النبع. كأنه بئر، بئر بدون قاع، بدون مياه...

ـ الله وأكبر!

أخرجني نداء الصلاة من البئر.

الثعلب والنعاج يسير في السماء. تسربت بعض التثاؤبات من الجامع واتجهت إلى النبع.

عليّ أن أرحل.

أين هي نجمة الراعي؟

أقف. تتحرك ساقاي. عليّ أن أركض. أركض. على الماء. على الأرض.

ـ توقف!

الباعث!

سمّرني صوت في غسق مدينة أحمر. إلى أين وصلت؟

ترتجف ساقاي. أنهار على الأرض. على لساني طعم الدماء المرّ.

الباعث!

أمام حذاء جندي، تسقط ستارة على عينيّ.

هل حل الليل؟

جاء سريعاً.

هذا الكتاب

«كيف يجب أن أشرح هذا الأمر: منذ اللحظة التي اختفت فيها صورة الخوف من على وجه أمي، بدأ أبي بالبحث عن زوجة جديدة! ربما هو، هذا الشكل الخائف الذي كان يثير فيه الرغبة، إذ في اليوم الذي لم تعد فيه أمي مرتعبة وهي تمارس الحب، لم يعد أبي قادرا على بلوغ النشوة الجنسية. اختار امرأة أكثر شباباً، امرأة لا يزال الجنس يثير فيها الخوف».